

شيلي واليا
ترجمة: عفاف عبد المعطي
صدام ما بعد الحداثة
إدوارد سعيد وتدوين التاريخ
رؤية

صدام ما بعد الحداثة

إدوارد سعيد وتدوين التاريخ

■ شالي واليا ■

صدام ما بعد الحداثة

إدوارد سعيد وتدوين التاريخ

العنوان الأصلي للكتاب

Postmodern Encounters :
Edward Said
And the Writing of History
Published in UK in 2001 by Icon Books Ltd., Grange Road, Duxford, Cambridge CB2 4QF

ترجمة وتقديم

عفاف عبد المعطي

رؤية

للنشـــر والتوزيـــع

2006

مرايا الكتاب

الكتاب : إدوارد سعيد وتدوين التاريخ

الكاتب : شالي واليا

ترجمة وتقديم : عفاف عبد المعطي

المدير المسؤول : رضا عوض

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة ٣٥٢٩٦٢٨/ ١٢٠

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤٠

الإخراج الداخلى : جويى

جمع وتنفيذ : الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

رقم الإيداع : ١٩٨٨٥ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : 977-6175-13-2

■ محتوى الكتاب ■

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

مقدمـــة

إدوارد.. كاتباً كونياً

رأيت ادوارد سعيد لأول مرة أوائل عام ٢٠٠٣ أثناء القاءه لمحاضرة بالجامعة الأمريكية عن الأوضاع فى الشرق الأوسط، وقد عرج منها على قضية عمره "القضية الفلسطينية " باعتباره ابن فلسطين البار الذى ظل طوال حياته على مبادئه فى الدفاع عن تلك القضية والوقوف متضاداً مع كل من يُهادن فى تلك القضية أو يساوم استفادة من انهيار الواقع فى الشرق الأوسط خاصة فى منطقة فلسطين. كما وأن الصورة التي تعطيها وسائل الإعلام (والحكومة الأمريكية أيضاً) عن التقدم "الرائع" نحو عملية السلام فى الشرق الأوسط تتناقض تماماً مع تدهور الوضع فى المنطقة خصوصاً بالنسبة إلى الفلسطينيين.

كانت حجة سعيد قوية ومنطقه صائب ونافذ وهادف مما أكّد على أنه الأكاديمي والمفكر العالمي فلسطيني الأصل الذى يعتبره كثيرون واحداً من نخبة مثقفي القرن الذين استطاعوا القيام بدور الجسر بين ثقافات مختلفة. أهميته تبرز من تعددية اهتماماته وغزارة كتاباته ومنهجه النقدي الذي لا يجامل فيه. والنقد هو سمة سعيد وهويته وهو يمارسه باعتباره الوسيلة الأهم للإبقاء على الجوهر الإنساني للأشياء ولإزالة ما يحيط بها من تشوهات وتحيزات وخداع.

أول كتاب صدر لإدوارد سعيد كان عام ١٩٦٥ تحت عنوان "بدايات - القصد والمنهج" ثم تبعه عام ١٩٦٦ بكتاب "جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية" عن الروائى البولونى جون كونراد الذى غادر وطنه عام ١٨٧٤ وهو فى السابعة عشرة من العمر ثم

عاش فى فرنسا وعمل قرابة أربع سنوات فى البحرية التجارية الفرنسية، وفى عام ١٨٧٨ جدد حياته كاملة فصار بحارا فى البحرية البريطانية، ثم اتجه إلى كتابة الرواية فصدرت روايته الأولى "جنون الماير"، ولعل الجامع بين سعيد وكونراد هو الخروج من الوطن ومُقدَّرات العيش فى أوطان أخرى والحديث بلغة غير لغة الوطن الأم، فضلا عن تجارب كونراد التى عاشها فى بولونيا واغترف منها ليكتب عنها بلغة أخرى تمثل لغة البلدين اللتين عاش فيهما، مصدر إعجاب إدوارد سعيد رجع إلى أن كونراد عاش فى لغة وكتب فى لغة أخرى. وإن كان كونرد أفضل حالا من إدوارد سعيد حيث بولونيا بلد سلافى وإنجلترا بلد أوربى غربى وتبقى اللغة التى نشأ عليها كونراد واللغة التى استخدمها فى نصوصه محصورتين ضمن المنطقة الأوروبية، لكن صعوبة وضع اللغة بالنسبة لإدوارد سعيد تكمن فى الفارق بين اللغة العربية التى نشأ عليها وبين الإنجليزية التى استخدمها فى كل كتبه وعاش أكثر سنوات عمره يتعامل بها.

يظهر مشروع إدوارد سعيد الفكري الأساسي وقد تنوعت مشاربه بين السياسة التى اتخذ قراره بأن يعود إلى الكتابة فيها بعد حرب ١٩٦٧، والنقد الأدبي وجماليات الفنون. يلخص هذا المشروع- باعتباره أستاذا للأدب المقارن- كتاب "الاستشراق" ١٩٧٨ الذى يُعرفه بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة فى التجربة الأوروبية الغربية، حيث لم

يكن الشرق لصيقا بأوروبا فحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا وأغناها وأقدمها، ومصدر حضارتها ولغاتها ومنافسها الثقافي. وقد أراد فى كتابه "الثقافة والإمبريالية" الصادر بعده بخمسة عشر عاما (١٩٩٣) أن يقدم أجوبة لأسئلة أثارها كتاب "الاستشراق"، و أن يرفض الفصل المطلق بين الأبيض وغير الأبيض (أى الغرب ومن سواه) بوصف هذا الفصل أسطورة من الأساطير الآثمة للإمبريالية ذاتها، حيث رسّخ إدوارد سعيد وضع عالمنا بوصفه عالما من المشاركة، والثقافات المتقاطعة التى تمتلك علاقاتها ونزعاتها من الثراء ما يمتلكه التاريخ الإنساني نفسه، كما قامت أفكار الكتاب على اكتناه الروابط العميقة والحيوية بين العرب والغرب واليابان والصين وأفريقيا هذه العلاقة التى تفوق فى عائدها وخصوبتها ما ينفى المقولة المعروفة المتخيلة التى تفترض أنه وضع غربى شرقى "نقى صاف من الأعراق والحضارات بعضها عن بعض" فالموقف الفكرى فى الثقافة والإمبريالية الذى ينطلق منه إدوارد سعيد ينبع من إيمان عميق بالإنسان والحرية وضرورة التواصل والتفاعل والإثراء المتبادل بين الثقافات والمجتمعات، والصراع ضد الاستعلائية والاستعمار والهيمنة والتسلط والتمركز الغربي، وضد نقائضها من قوميات ضيقة، و هويات متشرنقة وتمركز إسلامي أو عربي أو إفريقي.

فى كتاب "الثقافة والإمبريالية" - أيضاً - يكمن قدر من مشروع إدوارد سعيد النقدى - باعتباره أستاذا للنقد الأدبي والأدب

المقارن - حيث يفسر انتشار الرواية الملازم لانتشار الإمبريالية وفكرة الإمبراطورية، فهو يربط بين تجاوز الفضاء الجغرافي وبين الرواية وبين حركة التوسع الإمبراطوري وبين ازدهار الرواية لا ربطا آليا جامدا، بل ربطا حيويا خلاّقاً يجلو النقاب عن سؤال كيف تتجسد الوشائج فى بنية الرواية ذاتها وآليات تشكلها مما يعيد إنتاج الفكر الغربى، فقد ظلت كتابات الفرنسى ألبير كامو تسحر القارئ الغربي التى تقوم أساسا على الدفاع عن الإمبريالية الفرنسية ومن ثم إلغاء التاريخ الجزائرى السابق على استعمار فرنسا لها، وما فعله إدوارد سعيد عبر تحليل نصوص البير كامو هو أن فسر المكونات الأساسية فى عمل كامو فى إطار إشكاليات معرفية مرتبطة بمنظوره الإمبريالي الذى يكشف جوهر عمل كامو القائم على الدفاع عن الإمبريالية الفرنسية. فالمفارقة اللاذعة فى نصوص كامو تكمن فى أنه حينما يسرد قصة فى رواياته أو فى مقطوعاته الوصفية، فإن الحضور الفرنسى فى الجزائر - بلد المليون شهيد من جراء الاستعمار الفرنسى - يُصاغ إما كسرد غير جوهرى لا يخضع للزمان أو التأويل أو بوصفه التاريخ الوحيد الجدير بأن يسرد كتاريخ. كما يفسر إدوارد سعيد كيف أن البير كامو ابن إرث طويل من الكتابة الاستعمارية عن الجزائر شملتها المزاعم التقليدية التى تمتاح من تاريخ السيطرة الفرنسية على الجزائر. بينما في قراءاته لفيردى وجين أوستن وغيرهما يسلخ عن عمالقة الفكر هؤلاء الإهاب المفتعل الذى تلفعوا به، ويكشف منظورهم المتعالي

اللاإنساني المشبع بروح العنصرية والتفـوق والاستغلال الاقتصادي والعرقي، بل إن قدرة كتاب سعـيد وأهميته لا يقف عند هذا الحد بل تتمثل فى طريقة قراءته للنصوص التى تكشف تجليات العمليات والهواجس التى يناقشـها فى إبداعات الفكر الغربي على مـستوى تشكيلها النصي.

كما نال التـراث العربى قدرا كبـيرا من اهتمام إدوارد سـعيد ظهر ذلك فى كـتابه المهم " العالم والـنص والناقد " الذى تُرجِم دون علم إدوارد سعيـد بذلك كما يظهر. فـفى هذا الكتاب وثيق الصلة بالنقـد الأدبي نظر إلى النص باعتـباره كُلّيه مـتكاملة برغم حركته وتغايره إلا انه مرتبط إلـى حد كبير بملابسات الوضع الذى تبلور فيه، وقد اعتمد سعيد على إنجازات اللغويين العرب القدامى ونظرية اللغـة ذات الطبيعـة المزدوجة لديهم خاصـة عند ابن جنى (٩٣٢-١٠٠٢) وابن حـزم (٩٩٤-١٠٦٤) التى تضم خصـائص الكلام والكتـابة معا، وذلك لطرح مـفهوم مـحدد لعـلاقة النص بظرفيـته وملابسات إنتاجـه، فقد قدم هؤلاء اللغـويون العرب فى العصـور الوسطى ما اسمـاه إدوارد سعيـد " نظرية بالغة البـراعة للتعامل مع النص باعتباره صيغة متـميزة ومترعة بالدلالة تعد فيها دنيـوية النص ومـلابساته وظروفـه ومكانتـه باعـتبـارها شـيئـا له خصوصـيتها الحسـية واحتمالاتهـا وإمكانيتها التـاريخية وهى من الأمور التى يتضمنها النص فى نصه أو يرشقها داخله، وهذا يعنى أن للنص وضع دنيوى معين يفـرض على مؤوله وتأويله عددا من

المحددات ليس لأن هذا الوضع مـختلفا فى النص كـشئ غامض، ولكن لأنه موجود على مستوى ظاهر النص نفسه"وهذا يؤكد إلى درجة كبيرة وثوق العـلاقة بين النص والعالم وتداخل تلك العلاقة فى النص[1] .

بيد أن مـذكرات إدوارد المهمة "خـارج المكان" تبهر قـارئها لاعتراف صاحـبها بأنه مُقدم على عمل متنـاقض جذريا يتمثل فى إعادة بناء عالم فى مصطلحات عالم آخر بمعنى تذكر تجارب كثيرة عاشـها باللغة العـربية يصورها بالإنجليـزية بعد سنوات كثـيرة من حيـاته قضـاها خارج العـالم العربى، ولكون المذكـرات جزءا من سجل تاريخ صاحبها خاصة إذا كان شـخصية مثال إدوارد سعيد، بل لأنه عـدّها سجل لعـالم مفـقود أو منسى حـرص على تدوينه وجـعل مادتـه بمثابة أداة لمقـاومـة المرض الذى داهمـه منذ أوائل التسعينيات.

اللافت فى مذكرات "خارج المكان" صورة حياته الباكرة التى عاش معظمها فى القدس الغربية والقاهرة، والثورة المصرية ١٩٥٢ والاضطرابات الأهلية اللبنانية التى بدأت عام ١٩٥٨. وهى سجل شخصى غـير رسمى لتلك السنوات المضطربة التى عاشتـها منطقة الشرق الأوسط، فسرد إدوارد سعيد قصة حياته على خلفية الحرب العالمية الثانـية وضياع فلسطين وقيام دولة إسرائيـل وسقوط الملكية

١ راجع The World,The Text and the Critic وقد تم ترجمـته وصدر عن منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠ .

فى مصر والسنوات الناصرية وحرب عام ١٩٦٧ وانطلاقة حركة المقاومة الفلسطينية والحرب الأهلية اللبنانية واتفاقية أوسلو كل هذه الأحداث صنعت سيرة إدوارد سعيد الإنسان والعالِم والسياسي.

كانت مرحلة الطفولة التى دمرتها - على حد تعبير ادوارد سعيد نفسه - أحداث عام ١٩٤٨ قد أجليت فيها كل أسرته عن الأراضي الفلسطينية وعاشت فى المنفى وصار يعود كأى ضيف الى فلسطين الوطن.

ظهرت أيضا فى مذكرات إدوارد سعيد علاقة الحنين الدائم التى صورها بينه وبين مدينة القاهرة، وهى علاقة وثاقة عميقة صنعها وجوده إبان مرحلة الصبا التى عاشها فى الطابق الخامس من منزل رقم واحد بشارع عزيز عثمان بجزيرة الزمالك، كان يطل على حديقة الأسماك التى وصفها ادوارد سعيد بدقة "فهى منتزه صغير مسور ذو تلة جبلية وحوض صغير ومغارة تخترقه مروجات خضراء ومسالك متعرجة وتحف به أشجار كبيرة". هناك دافع مهم آخر لا توردە سوى حساسية إدوارد سعيد لكتابة تلك المذكرات هو رؤية عم أحمد حامد الفراش الذى ينتمى الى مدينة ادفو فى صعيد مصر و الذى عمل لمدة ثلاثة عقود فى خدمة عائلة إدوارد سعيد ومن ثم عندما قابله بالعناق الحار والحزن على زمن مر عليه ٣٨ عاما و لن يستعاد ؛ سرد له هذا الرجل - فى ذاكرة فولاذية - تفاصيل حياة الأسرة مما جعل إدوارد يقول "بعد أن قام الرجل بتفريغ الماضى صعقت أنه لا يتذكر كل واحد منا نحن السبعة وإنما

يتذكر كل واحد من عمومتى وعماتى وأبناءهم وجدتى إضافة إلى البعض من أصدقاء العائلة وزاد هذا اللقاء بالمصادفة من اقتناعي بجدوى هذا الكتاب"[1] ولئن كانت مقابلة إدوارد سعيد بعم احمد حامد صاحب الذاكرة القوية قد كانت من دوافع تدوين مذكرات إدوارد سعيد، فقد كانت دافعا أيضا لسرد جعل من إدوارد سعيد حكاءً متميزا ذا عين ثاقبة جميلة فى ذكر تفاصيل السير فوق كوبرى قصر النيل والعروج على حديقة الأندلس التى سماها بالحديقة المغاربية، وكذلك لأن يتعرف على شوارع إمبابة وبولاق الدكرور. وفى تقديرى ان مذكرات " خارج المكان " تمثل منظومة متكاملة لكل مرحلة من مراحل حياة مفكر كبير فى حجم إدوارد سعيد وتجربته فى الحياة التى تمثل كل منها ذاكرة وحدها تستحق النظر إليها بعين الاعتبار.

١- راجع : خارج المكان- ترجمة: فوّاز طرابلسى-دار الآداب - بيروت- ط١- ٢٠٠٠.

1

من المثقف الحقيقى؟!

مذكرات إدوارد سعيد وكذلك كتبه النقدية تُظهر صورة المثقف الحر غير المنتمى صاحب الهوى السلطوى صورة طالما أكّد عليها وظهرت فى آراءه وسلوكه فى كتابه "صور المثقف"، وكذلك مجموعة الأحاديث التى ظهرت معه فى كتاب "القلم والسيف".

ففى عام ١٩٩٤ قدّم إدوارد سعيد كتاب "صور المثقف"، وفى العام نفسه أجرى دافيد بارساميان[1] مجموعة من الحوارات معه قدّم لها إقبال أحمد (بروفيسور علم السياسة ومختص بتدريس قضايا الشرق الأوسط والعالم الثالث فى معهد الدراسات السياسية) وصدرت تحت عنوان "القلم والسيف"، ولاشك أن هناك علاقة تضافر ما خاصة بين كتابة ادور سعيد حول صور المثقف المتباينة وأوضاعه المختلفة ورؤاه هو بوصفه مثقفا، ومن ثم جاءت الحوارات التى أجريت معه لتمثل الصورة الأكثر بلورة لفكره ثم جاء كتاب "نهاية عملية السلام" كى يلخص المرحلة السياسية منذ اتفاق أوسلو ١٩٩٣، حيث الخطوة الأولى لتحرير الأراضى المحتلة هى أن نقرر فكرياً أنها ستتحرر، وإن قرار

١ - ادوارد سعيد - القلم والسيف - حوار : دافيد بارساميان - ت : توفيق الأسدى - دار كنعان للدراسات والنشر - دمشق ط١ - ١٩٩٩.

الولايات المتحدة واسرائيل أن لا عودة عن الضم (يعنى ضم القدس الشرقية إلى الغربية) وعن عملية السلام ليس سبباً كافياً للقبول بالظلم والسرقة المفضوحة، لذا فإن الخطوة الولى لابد أن تكون الاعتراف بان عملية كهذه بالتأكيد قابلة للنقض وبأن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب تعبئة حقيقية واستعداداً حقيقياً، فى حين أن السير على الطريق الحالى بقيادة الاشخاص الحاليين لن يؤدى سوى إلى المزيد مما نجده من الأوهام والخسارة والفساد[1] .

ويمثل كتاب "صور المثقف" مجموعة من محاضرات ريث التى تلقى فى إذاعة الـ BBC وبدأت عندما افتتح برتراند راسل سلسلتها فى عام ١٩٤٨ . ومنذ اللحظة الأولى للإعلان عن محاضرة ادور سعيد فى أواخر عام ١٩٩٢ احتشد الجميع ضد موضوع المحاضرات الذى يدور حول الدور العلنى للمثقف الـ "غير" منتم الـ غير "هاوى" الـ غير "مشوش" على الواقع الراهن، ولقد كُرست هذه المحاضرات - فعلا - للتحدث عن المثقفين بوصفهم على وجه التحديد تلك الشخصيات التى لا يمكن التكهّن بأدائها العلنى، أو إخضاع تصرّفاتها لشعار ما، أو لخط حزبى تقليدى أو لعقيدة جازمة ثابتة. خاصة أن مشكلة مثقفى هذه الأيام -حسب سعيد- أنهم تنازلوا عن سلطاتهم الأخلاقية لمصلحة

١- راجع موقف ادوارد سعيد الجسور من عملية السلام والنقائض الأمريكية والإسرائيلية بسبب تلك العملية. ادوارد سعيد- نهاية عملية السلام(اوسلو وما بعدها)-دار الآداب- بيروت- ٢٠٠٢ .

ما يسميه بتنظيم العواطف الجماعية مثل الروح الطائفية والمشاعر الجماهيرية والعدوان القومى والمصالح الطبقية، والأهم بالنسبة للمثقف أن يكون فى حالة معارضة شبه دائمة للوضع الراهن، فالمثقف شخص قادر على قول الحق فى مواجهة السُلطة، كفرد قاسٍ وبليغ- فى الآن نفسه- وشجاع إلى درجة لا تُصدّق وغاضب لا يعرف قوة دنيوية تكون كبيرة ومهيبة جدا بحيث لا يمكن انتقادها وتوبيخها على سلوكها. ومن هنا يبدو التلاؤم واضحا بينه وبين كتابه السابق عليه "القلم والسيف" خاصة وأنه فى كتاب القلم والسيف قد ظهر رأى ادوارد سعيد الحقيقى ليس كمثقف فقط بل كفلسطينى يدافع حتى النخاع عن الأرض التي خرج منها ولا تزال تستلب حتى الآن حيث يقول سعيد" الفلسطينيون أو الضمير الفلسطينى والذى هو بمعنى ما قد تعرّض للاغتصاب من التاريخ، توحى إلىّ ذكرياتى عن أيامى الباكرة فى فلسطين عن صباى عن السنوات الاثنتى عشرة أو الثلاثة عشرة من حياتى قبل أن أغادر فلسطين ربما بسبب الإدراك المتأخر والحنين الاستعادى توحى الىّ هذه الذكريات بمحاولة تهدف إلى أن تكون محجوبة، كلنا كنا نحاول أن نحجب عن أنفسنا الحقيقة الواضحة، إن المكان كاب يستلب منّا وأنه سيكون هناك قتال بيننا وبين المستوطنين القادمين من أوروبا ثم استيقظنا فى عام ١٩٤٨ على الواقع ؛ لقد طردت عائلتى بكاملها[1] .

١- راجع ادوارد سعيد- القلم والسيف- حوار دافيد باراساميان - ترجمة: توفيق الأسدى-دار كنعان- ط١-١٩٩٩ .

وهذه الصـورة هى التى صنعـت مـن ادوارد سـعيـد مثـالاً للعالم والمفكر الكتاب فى السياسة والأدب، والرياضي الذى كتب عن لعبـة البيسـبول، والفنان الذى تذوق الفن فكان عازفـا ماهرا للبيانو.

2

الاستشراق بين ادوارد ورودنسون

كان لظهور كـتاب (الاستشراق) ١٩٧٨ للمفكر ادوار سـعيد أثراً كبيراً فـى فهم معنى الاستشراق الذى يعـتنق أسلوباً معيناً فى الثقافة الغربية الخاصة بالتـحدث عن الشرق والبحث فيه وتوظيفه، وهو أسلوب يعكس الثقافة المُنتجـة أكثر مما يعكس موضوع التأمل أو البحث وهو الشرق. يُعرف سعيد الاستشراق بدقة بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنيـة على منزلة الشرق الخاصة فى التجـربة الأوروبية الغربية. حـيث لم يكن الشرق لصيـقا بأوروبا فحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا وأغناها وأقدمها، ومصدر حضارتـها ولغاتها ومنافسها الثقـافي، وقد أصبح الكِتاب بعد تداوله أحد عيـون الكتب فى الواقع لما يحمله من أفكار جديّة عن العلاقة بين الشرق الخـاضع والغرب الذى يسعى طوال الوقت للهيمنة. ففى تاريخ الثقافة الغربية ظل الشرق تكويناً هُلامياً سواء على المستوى الجغرافى أم الثقافى، تكويناً يعكـس متغيرات الثقافة الغربية وإن ظلت لـه ثوابته وأنماط تفكيره واستقـرار فكرته الذهنية عن هذا الشـرق. إضـافة إلـى ذلك يبرز ادوار سـعـيـد التكوين المؤسسى للاستشراق وارتباطه بالمصالح السياسية الغربية حيث جاء ازدهار الاستشراق مواكباً للتوسع الاستعمارى والامبريالى الغربى،

فهـو مَعرفة تُنتج القـوة، وقد وظّف كثـير من المستشـرقين علمهم بالشرق لخـدمة المصالح السيـاسية لبُلدَانهم على نحو ظاهر أحـياناً وخفى أحايين أخرى.

بداية تشيـر كلمة "استشـراق" إلى الاهتمام العلمى بالثـقافة الشـرقية، سـواء كانت عـربية أم آسـيوية فـهى تجمع بين الـشرق الأقـصى والأدنى، بما يضُـمه هذا الاهتـمـام من دراسـة وتحقـيق وترجمة. كـما تجسد كلمة اسـتشراق توجهات فى الـفنون الغربية استلهمت فنون الشرق ووظفتها فنياً.

ويمكننا هنا أن ننظر إلى فكرة الاستشراق عـبر مفكرين مهمين الأول ادوارد سعيد والثانى مكسيم روبنسون(١٩١٥-٢٠٠٤) فقد مثل رحـيل المسـتشرق الفـرنسى - اليهـودى من أصول روسـية- روبنسون مناسبة لاستدعاء مساره الفكرى فى التقاءه مع مفكر آخر مهم هو ادوار سعيد خاصة وأن بينهمـا جامعين جوهريينً متعلقان بالاستـشراق من ناحيـة، ومناهضة الصهـيونية وتعضـيد القضـية الفلسـطينيـة من ناحـيـة أخـرى. وكـان لظهـور كـتـاب (الاستشـراق)١٩٧٨ للمفكر ادوار سعيـد(وهو ليس مستـشرقاً بل مؤصلا لمصطلح الاستـشراق) أثراً كبيراً فى فهم مـعنى الاستشراق الذى يعتنق أسلوباً معـيناً فى الثقافة الغربية الخـاصة بالتحدث عن الشرق والبحث فـيه وتوظيفه، وهو أسلوب يعكس الثقافـة المُنتجة أكثر مما يعكس موضوع التأمل أو البحث وهو الشرق. وقد أصبح الكِتـاب بعد تداوله أحـد عيـون الكتب فى الواقع لما يحـمله من

أفكار جديّة عن العلاقة بين الشرق الخاضع والغرب الذى يسعى طوال الوقت للهيمنة.

فالحجة المركزية فى الاستشراق هى أن الخطاب الاستشراقى وعلى الرغم النقلات الهامة التي شهدتها استراتيجياته على مدى القرنين المنصرمين، قد ظل فى الجوهر عاجزاً عن التطور بسبب من تمسكه بخرافة كُبرى حول الشرق، إن الثقافة الشرقية هى فى حد ذاتها ثقافة التطور الموقوف بصفة دائمة، وهذا الارتداد الايديولوجى والمنهجى كان -حسب رأى سعيد- أحد أدوات إنتاج الهوية الغربية (مثل الهوية الشرقية) وتوطيد رغبة الغرب فى فرض إرادته على الشرق[1] .

وفى تاريخ الثقافة الغربية ظل الشرق تكويناً هلامياً سواء على المستوى الجغرافى أم الثقافى، تكويناً يعكس متغيرات الثقافة الغربية وإن ظلت له ثوابته وأنماط تفكيره واستقرار فكرته الذهنية عن هذا الشرق. إضافة إلى ذلك يبرز ادوار سعيد التكوين المؤسسى للاستشراق وارتباطه بالمصالح السياسية الغربية حيث جاء ازدهار الاستشراق مواكباً للتوسع الاستعمارى والامبريالى الغربى، فهو مَعرفة تُنتج القوة، وقد وظّف كثير من المستشرقين علمهم بالشرق لخدمة المصالح السياسية لبُلدَانهم على نحو ظاهر أحياناً وخفى أحايين أخرى.

١- راجع: ادوارد سعيد-تعقيبات على الاستشراق-ترجمة وتحرير: صبحى حديدى- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ١٩٩٦ .

ويعتبر مكسيم رودنسون واحداً من أهم المستشرقين الغربيين نظراً لاهتمامه المُبكّر بالثقافة الإسلامية - وهو بذلك مطبقاً لفكرة الاستشراق التي كان سعيد مُنظّراً لها - عندما صدر أهم كتبه "سيرة النبي محمد" ١٩٦١ و"الرأسمالية والإسلام" ١٩٦٦ بالإضافة إلى مجموعة مقالاته عن "الماركسية والعالم الاسلامي" التى خلُص فيها إلى أن نبذ اللغة من أجل الحفاظ على العبادة هو محاولة لعقلنة الديانة. وفي المقال المتميز الذي خصصه رودنسون للحركات الأصولية الإسلامية تعرض أيضا إلى السقوط الإيديولوجي الذى حدث من جراء العصبية الدينية وما ترتّب عليه من عواقب. ومنذ أن نشر رودنسون بحثه بعنوان "وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله" عدّد الجهود الكبيرة التي قام بها المستشرقون الكلاسيكيون حتى تمكّن علم الاستشراق من الوصول إلى ما هو عليه. فبينما كان التاريخ الأوروبي يكتفي بدراسة الحضارتين الإغريقية والرومانية جاء عصر التنوير ليضم الى هاتين الحضارتين كلاً من الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الصينية ليوسع من أفق دراساته الانسانية، بعد أن كان هذا العلم يحتقر الشعوب الأخرى غير الأوروبية كبداية لتأسيس مصطلح الاستشراق. لقد قام الأوروبيون بعمل كبير - حسب رودونسون- في اكتشاف ودراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية فأرسلوا العلماء - الذين كان معظمهم آنذاك من العلماء اللغويين- لجمع المخطوطات العربية ثم قاموا بتصنيفها وفهرستها وترجمتها. أي أن المستشرقين الأوائل قاموا بعملية جمع كم هائل

من المعلومات وتبويبها لاكتشاف الشرق وتم الانتقال ابتداءً من القرن التاسع عشر لدراسة هذه المعلومات للوصول إلى مرحلة التنظير، وهو هدف علمى أقر رودنسون بأنه كان من الدوافع الأساسية للدراسات الاستشراقية وبذلك يتفق مع ما ذهب إليه إدوارد سعيد من أن مبحث الاستشراق كان نابعا من نزعة مركزية أوروبية تجاه الشعوب المدروسة تحقيقاً لأهداف غير علمية تتمثل فى غزو هذه البلاد واستعمارها. وقد وجدت هذه البلاد الأوروبية فى اكتشاف علوم الشرق مساعداً قوياً لفرض نفوذها على هذه البلاد ونهب خيراتها طوال أكثر من قرن.

إن الجهد الواضح الذي قام به المستشرقون لدراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية يحمل قيمة كبرى وإن كانت تشوبه الأهداف الاستعمارية كما يقول رودنسون فإن الهدف العلمي كان الدافع الأساس في هذه العملية. لقد وجدت الدول الأوروبية في المعلومات والدراسات اللغوية والانثربولوجية والفقهية والفلسفية والأدبية وبالتاريخ الواقعى لبلاد الشرق مساعداً قوياً لها في بسط هيمنتها على هذه البلاد ونهب خيراتها طوال أكثر من قرن. والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هل نُطلق على بعض علماء الغرب الاستشراقى الذين كانوا يأتوننا بوصفهم رحالة صفة جواسيس لأنهم كانوا يَجمعون المعلومات لحكوماتهم من أجل التحضير لاستعمار بلادنا أم نعتبرهم علماء ؟ وهل نكتفي بكوننا أمة ذات حضارة عريقة يجب دراسة تاريخها وهو المجال الذى يُدخل إلينا الاستعمار من أوسع الأبواب ؟.

القضــية الفلسطينية : الجامع المشــترك الثانى بين ادوار ســعيد ومكســيم رودنســون يتمــثل فى الدفــاع عن القــضيــة الفلسطينيــة والوقوف فى وجه الصهــيونية الطاغية، وإن كان ســعيد (فلسطينى الأصل الذى وعى تجــربة الطرد من الوطن وعيــاً كاملاً) يمــتاز فى دفاعه عن القضــية بكونها قضيته الوطنيــة التي بات ينتقد القائمين على التفاوض فيــها مع التأكيد على الحمــاس الكبير فى الولايات المتــحدة التي تتــمتع بإجــمــاع عجــيب على استــفحــال التواجــد الاسرائيلى فى الشــرق، فالوضع الفلسطينى الذى أرّق ادورسعــيد فى يومٍ مــا تحـــول إلى كــابوس ثقــيل ازداد مع تــفــاقم الوضع الفلسطينى ســوء. كمــا أن مكسيم رودنســون يمتاز بكونه يــهودى الأصل استنكر أفعال إسرائيل مــنذ صدور كتابه "إسرائيل والرفض العربى" ١٩٨٦، حيــث لم يتأخر عن مقاربة الــصراع العربي - الاســرائيلي في زمن كان مــن الصعب مــقاومــة طغــيان الدعــاية الصهــيونية فــي العالــم. و كان من الذين احــتضنوا تجــربة "مجلة الدراسات الفلســطينية" الصادرة بالفــرنسيــة عام ١٩٨١ فكتب في عــددها الأول وحرص على الاطلالــة فيــها بشكــل شبــه منتظم. جاءت أولى مساهمات رودنسون حول علاقة العرب بإسرائيل في العدد الذي خــصصــته مجلة "الأزمنة الحــديثة" لجــان بول سارتر للصراع العربي - الاسرائيلى إبان نكسة يونيو ١٩٦٧ وحملت هذه المساهمة الطويلة عنوان "اسرائيل.. فعل كولونيالي؟". وصارت إحدى أهم المراجــع حول تشكّل المشــروع الصهيــوني. ثم توالت

نصوص رودنسون فى المضمار نفسه فاعاد الحديث في كتابه "اسرائيل والرفض العربي" الذي كان المحاولة الأولى من كاتب فرنسي إعطاء العرب حقهم في صراعهم مع اسرائيل وشرح موقفه من الصهيونية منذ ظهورها. لكن مشاركة رودنسون في النقاش حول فلسطين كانت ايضاً مناسبة يتعرف فيها العرب على كاتب من اصل يهودي يناهض اسرائيل. ولعل رودنسون يكون بذلك أكثر مَن ساعد على التمييز بين اليهودية والصهيونية مع استمرار موقفه النقدي من اسرائيل و يمكن تبين ذلك من المقالات التي جمعها في كتاب حمل عنواناً مثيراً هو : " شعب يهودي ام مشكلة يهودية؟ " .

3

مهمة الناقد

النقـد بمفـهـومـه المُطلق -أى نقـد كل الأوضـاع التي تؤرق المثقف- هو أهم سمات ادوارد سعيد، وهو يمارسه باعتباره الوسيلة الأهم لكشف زيف الواقع -خـاصـة السيـاسى- والنقـد بالنسبـة لادوارد سعيد شخصى فعّال مـتعاطف مع العالم متضمن فى تمثل مساراته ومرتبط بالفكرة المتخفيـة بأن المثقف -عبر عملية المعارضة والروح النقدية يمكن أن يزيل النفاق ويكشف الزيف ويهئ الأرض للتغـيير، والناقـد يعمل ضـمن شبكات متنوعـة للتبنى مـثلما هو النص تماماً. إن دنيوية الناقد بالنسبة لسـعيد شئ أساسى مثلما هى الدنيوية للنص، لذلـك حين نقرأ تحليله للخطاب الاستـشراقى أو العلاقة بين الثقافة الامبريالية والهيمنة الامبريالية أو استمرارية هذه العلاقة فى صور مـعاصرة للفلسطينيين فإن قضية الدنيـوية وموقعه فى العالم تصبح ميزة حاسمة لما" يشغر" تلك النصوص.

ويمتـد نقـد إدوارد سـعيـد الذي سطره فـي كتـبـه من نقـد الإمبراطوريات الكبرى وحركات المد الكولونيالي(الاستعمارى) إلى النقد الروائي إلى النقـد السياسي إلى النقد الموسـيقي وصولا إلى النقد الذاتي والعـائلي الذي برز بطريقة مدهشة في سـيرته الذاتية "خارج المكان"، ونقـد فيـهـا والده وكثـيـرا من أفـراد عائلتـه وأصدقائه.

وفي كتاب "الحق يخاطب القوة. ادوارد سعيد ومهمة الناقد" - وهو من اهم الكتب التي صدرت عن سعيد- يقوم المحرر بول بوفيه بتشريح إدوارد سعيد الناقد من كل الجوانب من خلال مساهمات عدد من متابعي سعيد ومن كتبوا عنه. في البداية يجدر القول بأن المحرر أحسن صنعا بتصديره للمساهمات التي ضمها إلى هذا العمل الاقتباس التالي عن إدوارد سعيد: "أنا مع الحوار بين الثقافات والتعايش بين الشعوب. إن كل ما كتبت عنه، أو ناضلت لأجله يشير إلى هذا كهدف أساسي. لكني أعتقد أن العدالة الحقيقية والمبادئ الحقيقية يجب أن تطبق قبل البدء بأي حوار حقيقي". وأهمية هذا الاقتباس أنه يضع إدوارد سعيد في المكان الصحيح والمتوازن والذي لا يلحظه كثير من نقاده، كما يتجاوزه أيضا كثير من معجبيه. فإدوارد سعيد، شأنه في ذلك شأن كبار المثقفين والمفكرين، كان ومازال محط تبجيل ونقد وخلاف وعداء أيضا. ولأنه مثقف ومفكر وموسيقي غير مساوم يجهر بالحقيقة حتى آخر مداها دون احتساب مُسبق لموازين الربح والخسارة، فقد استطالت صفوف المعجبين به وكذلك صفوف خصومه. وفي هذا الكتاب، الأول من نوعه عن سعيد، يجمع المحرر أهم الرؤى والآراء في فكر سعيد ومسيرته الكتابية والسياسية والموسيقية.

تميُّز سعيد، حسب ما يرى بوفيه، يأتي من جمعه لخصال ثلاث في آن معا تمثل حال وجودها في أي شخص الكينونة الحقيقية

للمثقف المسؤول والكوني. هذه الخـصال هي الاتساع والعمق في المعرفة، والرصانة التاريخية والأكاديمية، والبعد الأخلاقي والقيمي في الموقف السيـاسي الذي بدونه لا تقوم الحضارات. وغـياب أي من هذه الخصال يحول المثقف إلى مجرد موظف عادي أو أكاديمي جاف ينضـاف إلى جحـافل الأكاديميين في طول وعـرض العالم. ويترتب على البعد القيـمي في الموقف السياسي رفض منطق القوة والغلبة والتـفسير الهـلامي للعلاقات البـشرية، والنضال من أجل "العدالة" كـمبدأ إنسـاني رفيع لا يخضع لمنطق القـوة ولا ينحاز لصالحها. وعلى قاعدة "قيمـة العدل الإنساني" بين بشر متساوين أطلق إدوارد سعيد مشاريعه الفكرية الكبرى، بدءا بالكتابات الأولى عن فلسطين "السماء الأخيرة"، ثم العمل المفصلي "الاستشراق" في سبعـينات القرن الماضي الذي قلب فيه التصـورات الغربية عن الشـرق رأسا على عـقب، وصـولا إلى سفـره القـيم "الثـقافـة والإمبرياليـة" عام ١٩٩٣، ثم انخراطه في كتابات ناقـدة للعملية السلمـية بين إسـرائيل والفلسطينين باعـتبـارها تدوس على منطق "العدل" وتغلب سـرديات المنتصر، وليس انتهـاء بتسطير سـيرته الذاتية الغنية بالتصوير ذي الأبعاد المختلفـة لحياة فردية تنعكس فيها تحولات منطقة بأسرها، وخروجها من زمن ودخولها في آخر.

على أن ما يميز سعـيد عن كثيرين من مثـقفي العالم الثالث، كما تسهب المساهمات في التوضيح في هذا الكتاب، هو أن منطق "العدل" الذي يتحيز له ويقيس الأشياء عليه، لايتوقف تطبيقه عند

التعامل مع الإمبرطوريات الاستعمارية ورواياتها عن البلدان والشعوب المستعمرة، ولا عند نقد السلطات القامعة أيا كان مصدرها، الدولة أو المجتمع، بل إن ذلك المنطق يمتد ليشمل الذات، الجمعية هنا، ونقدها بلا هوادة وعدم تنزيهها عن الأخطاء. وهو هنا يركز على أن من أبرز مظاهر الظلم والإجحاف هي ما تنطوي عليه المشروعات القومية والمحلية التي تخبئ تحت شعاراتها الكبرى إكراهات لا تقل قسوة عن إكراهات المستعمر. وقد أبدع سعيد، في "الثقافة والإمبريالية"، في إعادة إنتاج نقد فرانز فانون للمستعمِر (بكسر الميم) لأسباب أكثر وضوحا من أن تحصى، وأيضا للمستعمَر (بفتح الميم) لأسباب خفية تحتاج إلى وقفة. فمن ضمن هذه الأسباب أن المستعمَر (بفتح الميم)، وفي خضم انخراطه المحموم والمشروع في الكفاح ضد الاستعمار قد يلجأ إلى حيل وممارسات الاستعمار نفسه ويطبقها على أبناء شعبه أو شرائح منهم. ولهذا فلا بد أن تكون عين النقد مفتوحة باتساعها على الطرفين، ومهمتها التصويبية هي نقد المستعمَر (بفتح الميم) وعدم مجاملته إذا أخطأ وذلك حرصا عليه كي لا ينزلق إلى مسار من استعمروه. فإدوارد سعيد يرفض التعميمات المُطلقة تجاه الحضارة الغربية، كما رفض التعميمات الغربية تجاه الشرق في "الاستشراق"، وهو يرفض على العموم "السرديات الكبرى"(meta narratives) التي تتبناها حضارة ما تجاه الحضارات الأخرى، ويرى أن ليس ثمة سرديات كبرى، أو رواية واحدة للتاريخ والحضارة بل هناك تعدُّدية وتنوع في مسار التاريخ وهناك تصورات ومخيلات لا مجال لتفضيل إحداها

عن الأخرى إذ كل منها يخضع لانتقائيات ثقافية واجتماعية خاصة بها. فالخطر الكبير في السرديات الكبرى هو أنها تنطوي على نظرة "تراتبية" تجاه الشعوب والمجتمعات، ترتبها حسب "الأفضل فالأفضل" وهذه عنصرية أنثروبولوجية لا مناص منها، وذلك كما كان واضحا في مثال استعمار الرجل الأوروبي الأبيض للشعوب الأخرى، الذي تأسس على قاعدة "تنوير" تلك الشعوب ونقلها إلى مستوى الحضارة الأوروبية. وكل نواتج التراتبية الحضارية، مثل "المركزية الأوروبية" (Eurocentrism) هي في الواقع محاضن للعنصرية المقيتة. ويبرز نقد سعيد للتراتبية الحضارية ليس فقط في نقده للتراث الروائي والفكري الغربي (مثل نقده لكيبلنغ، وأوستن، وفيردي وغيرهم)، بل في امتداده لنقد مثقفين من ذوي أصول عالم ثالثية لكنهم تبنوا وجهة نظر أوروبية في احتقار الثقافات الجنوبية، وخاصة العربية الإسلامية، وعلى رأس هؤلاء ف. أس. نايبول، الذي حاز على جائزة نوبل، والذي انتقده سعيد بشدة نظراً لموقفه المزدوجة وهو أحد أبناء العالم الثالث.

لكن في مقابل ذلك يرفض سعيد أن يتلذذ مثقفو العالم الثالث بسب الغرب صباح مساء وتحميل الغرب وسياساته وسياسيّه كل مسؤولية التخلف والضياع والفقر الذي تعاني منه الشعوب الفقيرة. فهو يُحمّل نخبة ما بعد الاستقلال العالم الثالث مسؤولية لا تقل عن تلك التي يتحملها الاستعمار المباشر في إعاقة النمو والتحضر في أوساط تلك الدول والمجتمعات. وقد نحت مقولتان شهيرتان تنطويان على عمق شديد، يركن في أعماقها مبدأ العدل

في النظر والتحليل والتـوصيف، الأولى تقول "لا تـضامن بدون نقد" (No solidarity without criticism) والثـانية تنتـقد مـا وصـفـه بــ"رطانة اللوم" (Rhetoric of blame) ،وفي كلتـا المقولتين يتـوجه سعيد إلى مـثقفي العالم الثـالث حيث يرفض أن يكون "التضامن" مع أي قـضية عادلة خاليـاً من النقد ومُنزّها لها عن الأخطاء، فـالنقد هو مـبضع الجـراح الذي يزيل الأورام أولا بأول ويسـهر على صـحة المريض. وبنفس الشـدة من النقـد فإن سعيد ضد "ثقافة إلقاء اللوم على الآخرين" لأنها ثقافة عاجزة لا تنتج عملا بل توفر ذرائع للقعود والاتكاء على وسائد الراحة.

ورغم أن تميز إدوارد سعيد الأولي جاء في حقل النقد الأدبي وتأسـيس مذهب "النقـد مـا بعد الكولونيـالي" (Postcolonial criticism) والذي يعتبر عمله "الاستشراق" العمود الفقري لهذا المذهب، إلا أنه تخطى حدود التصنيف في إطار حقل واحد. فقد أمدت ثقافة سعيد العـالمية الموسوعية نظراته بعمق وتنوع شديدين، في الفكر والثقافـة والسياسة واللغـة والتاريخ الأدبي. إلى جانب ذلك فإن معـارفه الموسيقـية الواسعة ومـتابعته لتاريـخ الموسيقى، وإصداره كتبا في هذا المجال، وممارسته للعزف على البيانو بمستوى المحترفين، كل ذلك أضاف أبعـادا جماليـة سواء على كـتاباته أو أدواته النقـدية فكان يمزج كل تلك الخبـرات في العمل النـقدي، سواء أكـان أدبيا، أم فكريا، أم سياسـيا، وكانت الخـلاصة على الدوام أعمال مبدعة وضعت سعيد فـي مصاف كبار مثقفي العصر الحالي ذوي النزعة الكوزموبوليتانية الإنسانية.

■ ٣- مهمة الناقد ■

4

أزمة الهوية

غنى عن البيان أن قُـرّاء ادوارد سعيد فى العالم كـثيرون ومن يقـرءون عنـه بنفس العـدد إن لم يـفـوقـه، لذلك فكـتـاب بيل اشكروفت وبال أهلواليا "إدوارد سعيـد ومفارقة الهوية"[1] يعتبر إضافة إلى قراء إدوارد سعيـد لأنه يقدم الأفكار التي تتعلق بجوهر أعمـاله لتضع هذه الأفكار تقريراً عالـى التأثير عن طبيـعة تشكل الهوية فى عالم ما بعد الكولونيالية (ما بعد الاستعمار) ويقدم فهماً جديداً للروابط بين النص والناقد وسياقاتهما المادية ومن ثم يتساءل المؤلفان عن السبب الذى جعل هذه الأعمال المهمة جدا تحقق -عبر سياقاتهـا- تأثيراتها. فقد عمل ادوارد سعيـد أكثر من أى شخص آخر ليضع القـضية الفلسطينية أمـام الجمهور العالمى، كـما كمنت أهميته بوصفه مُنظراً ثقافياً على أرضيتين حيث موقعه الأساسى فى المدرسة المنتمية للدراسات ما بعد الكولونيـالية وخصوصاً عبر كتابه المهم "الاستشراق" وإصراره على التـأصيل للسياقات المادية للنص والناقـد، هذا الإصرار وضـعـه لوقت ما خـارج التـيار الرئيـسى

١- راجع: بيل اشكروفـت و بال أهواليـا- ادوارد سـعيـد(مـفـارقـة الهـوية)- ترجمة: سهـيل نجم- مراجعة: حيدر سعيـد- نينوى للدراسات والنشر- سوريا ٢٠٠٢.

للنظرية المعاصرة لكنه برر بقوة عودة الثبات إلى الوظائف السياسية والثقافية للكتابة.

يرى ادوارد سعيد "إن الهوية تكمن فى تساؤلين هما: من نحن؟، ومن اين جئنا؟ والإجابة عنهما صعبة المنال، ففى المنفى. نحن.. الآخر، المُعارض، صدع هندسة إعادة الاستيطان، الرحيل - الصمت والحذر يغطيان الألم يهدئان لوعة الخسارة". لقد ظلت الهوية بالنسبة للفلسطينيين مسألة مُحيرة ذلك لأن الفلسطينيين وفقاً لسعيد قد أُبعدوا عن ديارهم وبذلك كانت النتيجة أن تبعثروا فى العالم، لقد كان الشعار الصهيونى "شعب بلا ارض= اليهود، لأرض بلا شعب= الفلسطينيين" شعاراً يقدم فلسطين على نحو ما فعلت الامبريالية الأوروبية وكأنها مقاطعة خالية مملوءة على نحو متناقض بأناس أراذل وغير ضروريين. هذا التصنيف للمكان وسُكّانه براهن لسعيد على أن الاحتلال البريطانى - الصهيونى المتواصل لفلسطين كان مثالاً على التاريخ الطويل للامبريالية الأوروبية.

لقد كان استعمار فلسطين هو الذى أجبر سعيداً على أن يختبر الخطاب الامبريالى (الاستعمارى) الغربى كى ينسج تحليله الثقافى مع النص الذى يحمل هويته. كما أن تسييس ادوارد برهن له أن النظرية الأدبية نفسها لا يمكن أن تنفصل عن العلاقات السياسية فى العالم الذى كُتبت فيه. الشئ الذى لا ينكر أننا لا نستطيع أن نفصل بين الترابط السياسى للدولة الفلسطينية وهوية ادوار سعيد،

فلا نستطيع إسقاط كـتاباته عن فلسطين إلى نوع من الكتابة العادية لأننا لا نستطيـع أن نعزل المسألة الفلسطينـية عن تاريخ الامبـريالية الأوروبية وعن الوقع المعــاصر لمقاومة مـا بعد الكولونيالية مـتنوعة الأشكال فى مختلف المجـتمعات، هذه الأشيـاء تتداخل فى الحال بعضها مع البعض ارتباطاً بالواقع.

سواء كان ادوار سعـيد ناقدا أو محللاً سياسـياً أو منظراً أدبياً وثقافياُ أو حـتى مواطناً يحمل هوية مزدوجة فلسطينيـة وأمريكية فإنه يمثل طـبيعـة الهوية القائـمة على المفارقـة فى الدنيا المهـاجرة المتعولمة التـي عاشها حيث وقع فى تناقـضات بين شخصـيته التي عاشت فى الغرب وتأثرت به وعلاقته السياسية بوطنه الفلسطينى. تناقضات بين صوته السـياسى والموقع المهنى، تناقضات بين الطرق المختلفة التي قُرئ فيها، تناقضات فى الطريقة التي وضع فيها فى الأكاديمـية، لقـد كان التـرابط الحمـيم بين هوية سعـيد ونظريـته الثقافيـة، وكذلك المفارقات التي يكشفها يبين لنا شـيئاً عن تركيب وتعقيد الهوية الثقافية نفسـها، فهو عربى وفلسطينى وبالتأكيد طبقا لاسمه فلسطينى مسيحى هذه المسيحية إن لم تكن مفارقة فى عالم إسلامى شرق أوسطى مـتزايد، فهى بالتأكـيد تمثل مفارقـة بالنسبة للمثقف من جهة كونه أبرز ناقد للتمثيل الغربى المعاصر للإسلام. إن مفارقـة هوية ادوارد سعيد هى الميـزة الاستراتيجيـة التي قدمت مفتـاحاً لاهتماماته وقناعـات نظريته الثقافـية، هذه الهوية هى فى نفسها نـص يدرس وتعاد كتابته باستـمرار من قبل سعيد مـتقاطعاً

ومترابطاً مع كل النـصوص الأخرى التي يكتبهـا، لذا كان الترابط الحميم بين هوية سعيد ونظريته الثـقافية التي قامت فى أغلبها على نقد الامبريالية الدالة على الهيـمنة فى كل صورها مقابل الانتصار للقلة التي ينبغى أن يكون لها مكانا على خارطة هذا العالم.

ولأن ادوارد سعيـد قد وجد نفسه فى فـضاء بين ماضى يمثل وطنه الفلسطينى المستعمَر وحاضـره الأمريكى الامبريالى فقد وجد نفـسـه ملتـزمـاً بالتكلم من أجل فلـسطين على أن يكون صـوت المهمـشين والمطرودين وكذلك ليـقدم القضـية الفلسطينيـة للشعب الأمريكى باسـتفاضـة كذلك يظهر أثره فى تقـديم صورة فلسطين ومشكلاتها إلى العالم كله.

5

ما علاقته باليهود؟

ما الشيء الموجود في شخص سعيد ويشكل تهديدا من وجهة النظر الصهيونية؟ هذا ما نجده فى كتاب «ذكريات ممنوعة»[1] لإيله شوحاط، وهى يهودية من أصل عراقي، هاجر أهلها الى اسرائيل في مطلع الخمسينيات. ونشطت في اسرائيل في الحركات اليسارية والشرقية الاحتجاجية قبل ان تغادر اسرائيل لتستقر نهائيا في اميركا، حيث تعمل الآن أستاذة العلوم الثقافية في جامعة نيويورك. ناشطة إنسانية ومناهضة للصهيونية وللكولونيالية. والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات وابحاث. قبل أن نجيب عن هذا السؤال، يجب ان نلقي نظرة على صور القوميات الاخرى، وفي الغرب بشكل خاص، و كيف يتم تقديمها وكيف تقدم هى نفسها؟. سيكون من الممتع ان نتفحص على أي نحو يتم بناء شخصية ادوارد سعيد في اطار سياسة القبول على ضوء المسألة المعقدة، مسألة اسرائيل/ فلسطين. تحوي الكتابات التي تدرس الموجة الاخيرة من المتحدثين الفلسطينيين ما يكفي ليشير الى ان الخطاب السائد في الولايات المتحدة واسرائيل ليس منزعجا من

١- ذكريات ممنوعة - ايه شوحاط - ترجمة إسماعيل دبج - دار كنعان - سوريا - ٢٠٠٤.

مضمـون الحجج فحسب، بل من طريقة عرضـها ايضا، أي اننا، بكلمـات اخرى، نتـعامل هنا مع سـياسـة الاسلوب. لا تسـتوي شخصيـة المتحدثين الفلسطينيين من أمثال سعـيد وابراهيم ابو لغد وجـيمس زغـبي ورشـيـد الخالدي مع الصـورة النمطيـة للعـربي بالشاربين الكثين والانف النـسري والانجليزية المهلهلة بلكنة عـربية ثقيلة. وهم، إضافـة الى ذلك، يتحدثون من واقع معرفة مـعايير الحوار الاميـركي ويتضلع في قواعد اللعبـة الاعلامية الاميـركية، فسـعيد، على سـبيل المثال، يتـمتع بصورة مـتميـزة لأكاديمي من جامـعة ارستـقراطية (كـولومبيـا)، ما يحدث شـرخا في الخطاب الصـهيوني الاوروبـي مركزيـا من جهة الـسياسـة التي ينتـهجـها الاسلوب الاسرائيلي في عرض الامور: فبما انه تم تصوير العرب بشكل دائم بصفـتهم النقيض المبـاشر لكل ما هو غـربي، فإنه من المزعج -على نحـو خاص- مـجـرد فكرة وجود مُـتحـدّث باسم الحقوق الفلسطينية العربية ومتـمكّن من أسرار الثقافة الغربية. يبدو أننا هنا، على المستوى الثقافي، امام خلط فى المقاييس. فهذه نقطة حساسـة على مستويين: على المسـتوى السياسي من ناحـية تصور اسرائيل عن ذاتها بوصفها دولة غـربية، وعلى المستوى الثقافي من ناحيـة الدعاية الاسـرائيلية الرسـميـة التي تعلمت دروس الثقـافة الامبريالية المتعة والتي تواصـل رسم صورة العربي بصفته جاهلا بكل مـا له صلة بالحضـارة الغربية. يقـلل هذا الخطاب من قيـمة اللقـاءات التاريخـية بين العـرب وأوروبا (وخاصـة أثناء «العصـر الذهبي» في ايبـيـريا وعلى امتـداد مـئات السـنين من الاحتـلال

الكولونيالي) كما لا يوجد متسع مفاهيمى للعربي كى يكون ايضا غربيا ويتمتع بثقافة مطعمة مركبة. كان لهذا التنميط للعربي أهمية كبيرة بالنسبة الى دولة اسرائيل القومية الواقعة جغرافيا في الشرق الاوسط و التي يتوسع خيالها في «الغرب».

فضلا عن ذلك، فاسرائيل «تسوّق» نفسها، من الناحية الجيوسياسية، بصفتها حليفة المصالح الغربية في المنطقة. في اثناء الانتفاضة الأولى، على سبيل المثال، أبرزت دعايات وزارة السياحة الاسرائيلية في التلفزيون الاميركى هذه الصداقة الجيوسياسية بقولها: «تعالوا الى اسرائيل، تعالوا لتكونوا بين أصدقاء»، واختارت عائلة اميركية بيضاء بصفتها عائلة اميركية «نموذجية»، لتظهرها مع نظيرتها في اسرائيل فى صداقة حميمة بين العائلتين. تخلق الصور التلفزيونية التي من هذا القبيل الانطباع بأن ثمة تحالفا طبيعيا بين الغرب واسرائيل، بينما لا توجد أي رابطة بين الغرب والعالم العربي. ان كون سعيد اخصائيا في ثقافة الغرب «الراقية» يهدد، وان كان ضمنيا فقط، الخطاب السائد.

وتؤكد التقارير حول سعيد في الصحافة الاسرائيلية على انجليزيته الممتازة وكأنها تشكل جزءا من مؤامرة خادعة: فلو رأى الاميركيون الحقيقة الجوهرية القابعة خلف استعارات ورنين انجليزيته البليغة لما وقعوا تحت إغواء كلماته. وحيث ان اللغة تلعب دورا ترميزيا مهما في ايديولوجيا الثقافة، فإن انجليزية المثقف العربي تربك وتشوش ثنائية الحضارة البربرية. لمزيد من السخرية، فإن

الخطاب اللاسامي هو الذي كان قد استخدم اللغة كفكر لإثبات ان يهود اوروبا سيبقون أجانب للابد بسبب ماهيتهم. ولقد كان في إغلاق طريق «الحضارة» امام اليهود بُعد لغوي ايضا. فالالمانية، هكذا زُعم، لن تكون ابدا في حيازة اليهود حتى وإن أجادوها إجادة تامة، وذلك لأن«هم» ينتمون لعرق آخر، ولأن اللغة السرية الخاصة، هي اللغة الاصلية التي عبرت عن جوهرهم اليهودي الذي لن يستطيع ان يكون ألمانياً ابدا كذلك طبقاً لحوادث الهولوكوست. وبقايا هذا الخطاب حاضرة في الصور التي تمتاز بها الأدبيات الإسرائيلية حول الفلسطينيين الاميركان. ثنائية اللغة هي احدى سمات المنفي والمنفى، ولكن هناك تلميح الى سكان قارة اميركا الشرقيين، العرب الاميركان، بأنهم انما يخفون وراء انجليزيتهم مؤامرة عربية. تظهر هذه الاكتشافات بتواتر مكثف في مقال طويل نُشر في ذروة الانتفاضة في «يديعوت احرونوت»(٣) تحت عنوان «رجال م ت ف (اى منظمة التحرير الفلسطينية) في الاعلام مرفقا بصورة ضخمة لادوارد سعيد وابراهيم ابو لغد أُلتقطت فور لقائهم مع جورج شولتز». (نفس تلك الصورة نُشرت ايضا في صحيفة عصبة الدفاع اليهودي التي لقّبتهم «بروفيسورات م ت ف»). اهتمت المقالة بـ«فلسطينيين يحتلون الاعلام الاميركي» وركزت على حقيقة ان « شارحي م ت ف في الولايات هم مجموعة من المثقفين الفلسطينيين، ذلقي اللسان ومحنكين وخبراء في مادتهم ويتحدثون الانجليزية بطلاقة. كلهم يتحدثون ويتصرفون

وكأنهم امـيركان، وهم بالفعل كـالاميركان». وتبـرهن المقالة هذا التشـخيص بواسطة مـقابلات مع مسـتشرقين اسـرائيليين: «كلهم سوبر سـتار. انهم رجال مؤثرون، ذوو مـكانة أكاديمية مرمـوقة، ويستـغلون موقعـهم، دون كابح، من أجل الدفـاع عن قضيـتهم الوطنية. وأنا لا أقـول ذلك ذاماً. انهم محنكون مَلِسـون. يبدون احيانا وكـأنهم بورق من الزجاج»(. . .). ويقول البـروفسور ايلي ريخس، المستشرق الاسـرائيلى الذى يدرس في الولايات المتحدة: «أسلوبهم محـترف. فلا تجد عندهم بـعدُ الدعاية الانفعـالية التي وسمت الناطقين باسم (م ت ف) سابقـا. لن تسمع منهم اتهامات غير مقبولة عقليا مثل (انتم تريدون تصفية العرب). هذا الاسلوب اختفى. رسالتهم تبدو أكثر اعتدالا من الرسالة الاسرائيلية».

هناك مقـارنة واردة في هذه الكتاب بين سعـيد ونتنياهو غـير مفاجئة رغم ان كلا منهما يقف على الطرف النقيض في السياسة. فنتنيـاهو، المتحـدث عن وباسم «العـالم المتحـضر» (أي اسـرائيل والغرب على عكس الشـرق العربي غير المتـحضر) يصوغ كـلامه بأميركـية صقيلة، ويُنظر اليـه، بإنجليزيته الطلقة الخـالية من اللكنة الاسـرائيليـة، كمن يقـدم رؤية ممنهـجة ومـنطقيـة. يمثل نتنيـاهو الفانتـازيا الاسرائيلية حول الامـركة ويعزز صورة اسـرائيل ككيان غربي، ليس أمام العالم فقط بل وأمـام اسرائيل نفسها. لذلك فإن عمق إلمام سـعيد بثـقافة الغـرب وأسلوبه المهني يفككان الصيـاغة الصهيونية للهوية الاسرائيلية التي تضعها في علاقة تضاد مع الهوية

العربـية. ومع الكتـاب يناقش أسلوب متـحدثين عدة مـن العرب الأمريكيـين البارزين، الا أن الكاتبة قـد افتـتحتـه بادوارد سعـيد وتمحورت في كل متنه على أساليبه الـ «الدعائية»: «يعرف ادوارد كـيف يقوم بعـمله. فمـقالتـه حـول ياسـر عرفـات في مـجلة «انترفـيو»[1] النيـويوركية التى كـانت ممتازة. كل شـيء كان في الداخل: عرفـات بخف بيتي، عرفـات كمقـاتل من أجل الحرية، كرجل دولة، كصديق وفي، كفيلسـوف. جاء سعيد مع النبذة عن حياة عرفات الى «انترفيـو» كجزء من حملة الدعاية الفلسطينية في الولايات المتحدة. انها حملة ذكية وماهرة ومتشعبة وناجحة. سعيد ضـيف دائم ومن أهل البـيت المحبـوبين لدى الاعـلام الاميـركي (...). ان مـجلة انترفـيو غـير مـخـصصـة بالضبط لنمـوذوج كعرفات... ان تركيبة عرفـات انترفيو تثبت ان الدعاية الفلسطينية ماكرة وفاعلة ومؤثرة. انها تدرك انه ينبغي حشر صورة عرفات في مجلات إعلامية ليـست إخبارية بامتياز ولا سياسيـة بامتياز. وكما قلنا، فلقد عـرض سعيد عـرفات إنسانيـا مصممـا صاحب حس فكاهة. الاسرائيلي الذي ظهر هذه السنة في انترفـيو في نبذة حياة موسعـة. وهنا عرفات! لقـد تم تجاوز الحاجز: فعـرفات الارهابي أصبح موضوعا شرعيا جدا عند مجلة راقـية غير سياسية، ثقافية، غريبـة الاطوار قليلا، وأسلوبية جـدا. ولكن، فلربما بدون ادوارد سعيد ما كان عرفات يستطيع ان يصل بسهولة الى هذه المجلة. أي

١- راجع جريدة السفير عدد ٢٤-١٠-٣-٢٠٠ ترجمة اسماعيل دبج.

لعل سعيـد هو القصة الحقـيقية. لعله هو والبروفـسور ابراهيم ابو لغد، ومعهم ايضا مجمـوعة اخرى من الفلسطينيين الاميركيين من البـروفـسـورات ورجـال الـفكر الذين يشكلون جـيش الدعـاية الفلسطينية في الولايات المتحدة. لقد استـضافت الانترفيو عرفات لأن سعيد، وهو بروفسور الآداب في جامـعة كولومبيا، رشح لها اياه(. . .). ادوارد سـعيـد مثـقف ايضـا، وكذلك صـديق جيـد لعرفات، وأميركي، وحسن الصورة وذو صلات لا يمكن تخطيه أو تجاهله لأنه مصنوع من مادة صلبة. . .»

هذه الصورة المتـشكلة من السلاسة والنجاعـة والمهنية، تزعج التـقسـيم الثنائي بين «نحن» (الغـرب الذي يشمل اسـرائيل) وبين «هم» (الفلسطـينيين، الارهابيين العـرب). ان صـورة الفلـسطيني الجديدة هذه تجتـاز حدود الهوية كما رسمـها الخطاب الاسرائيلي، ولذلك فإنها تثير في الاسرائيلي الخوف على هويته هو:

«مـعـروف ان سـعـيـد، من بين الدعـائيين الفلسـطينيين في الولايات المتحـدة، هو ال«سوبر ستار»، على حـد تعبير الدكـتور يوسي اولمرت. ويقـول اولمرت، مع ذلك، فالرجل لا يتـورع عن الكذب ولا عن تحريف الحقائق ولا عن الحيل القذرة وفي الضرب أسفل الحزام. ليس هـو بالمتمكن بالحقائق كبـعض زملائه، ولكنه يتمتع بكل ما هو مطلوب لـلنجم الاعلامي في الولايات المتحدة: انجليزيته لا تشوبها شائبه وخـالية من اللكنة الغربية. مظهره ممتاز، كاريزمي، أنيق ولامع. ولا تعوزه الاجابة ابدا».

ويتواصل وصف عمل المتحدثين الفلسطينيين بأنه عملية تسيطر فيها (م ت ف)على الشاشة الاميركية، وبما أن «الشاشة هي الوعي الاميركي» فإنهم «يسيطرون على الوعي». وتؤكد الكاتبة: «في اسرائيل يدركون ما يجري». أي حتى عندما يعبر فلسطينيون مثل سعيد عن رغبتهم في إجراء حوار فإنهم يفسرون هذه البادرة بأنها مكيدة عربية. فالمقالة تلمّح الى أن صورة المثقف الفلسطيني كجيد فى الظهور الاعلامي وكصاحب لغة إنجليزية طليقة ليست أكثر من ركيزة اخرى تستهدف تضليل الاميركيين السُذّج الذين يأسرهم سحره على الشاشة بسهولة. ان التلاعب بالالفاظ في العنوان «رجال م ت ف في الاعلام» هو من سمات النغمة والخطابة والمقاربة التي تفسّر أية هوية فلسطينية غير نمطية بأنها دلالة على مؤامرة فلسطينية.

تنطوي مسألة الأسلوب على أهمية رمزية في الخطاب الكولونيالي. يمثل رفض أسلوب المثقف ضد الكولونيالي الانموذج الكلاسيكي في هذا الخطاب الذي يصنف الأقوام وفق معايير ثقافية، البعض في التقدم والبعض في التخلف. وترتدي مسألة الأسلوب أهمية إضافية في أجواء الإعلام الغربي بكل ما له صلة بالصراع الاسرائيلي الفلسطيني. ان الهجوم على سعيد تنبئ بقدرته على المس بصورة اليهودي كضحية، هذه الصورة الاساسية في الخطاب الصهيوني والسرديات اليهودية. لقد عبر سعيد عن صعوبة رواية السردية الفلسطينية القومية بعلاقتها مع تاريخ ضحايا

الكارثة. بعبارة اخرى، فلكي يكون المثقف الفلسطيني قادرا على التحدث باسم التاريخ الفلسطيني، ينبغي عليه ان يتعامل مع الخطاب الذي يعرفه الاعلام، وهو خطاب الجالية اليهودية (الاوروبية) التي غدا طرحها لنفسها متماهيا مع تاريخ قمعها. حتى في اللغة الإنجليزية، فإن المصطلحات التي تتعامل مع الصراع الاسرائيلي / العربي مأخوذة في الكثير من الاحيان من الخطاب الاسرائيلي الرسمي. فعلى سبيل المثال، يُطلق في الاعلام الاميركي على حرب عام ١٩٤٨ اسم «حرب الاستقلال» وعلى حرب ١٩٦٧ اسم «حرب الايام الستة». بينما يخلو قاموس المصطلحات الأمريكي من أي ذكر تقريبا للمنظور العربي الذي يطلق اسم «النكبة» على حرب ٤٨ واسم «النكسة» على حرب ١٩٦٧.

الـ «تقليد» الفلسطيني: أولت أعمال المثقفين الفلسطينيين خلال العقدين الأخيرين، اهتماما بمسألة كتابة هوية فلسطينية خارج نطاق الخانة التبسيطية «العرب». لقد أفضى اضطهاد الفلسطينيين في الدول العربية، منذ هزيمة عام ١٩٦٧، الى يقظة وطنية فلسطينية متميزة عن العربية. شكلت أحداث ١٩٦٧ نقطة انعطاف في التاريخ الفلسطيني، وحفزت الفلسطينيين لصياغة تعريف ذاتي للهوية، اذ لم يكن من الممكن إلا بتخصيص من ذاك النوع فتح كوة للسردية الفلسطينية. فمذاك لم تعد الاراضي المحتلة تحت السيطرة المصرية او الاردنية وأصبحت ميدان نشاط غير

خاضع لنظام عربي، ولم يعد الفلسطيني الذي يقاتل الاحتلال الاسرائيلي يرتدي سُترة اردنية او مصرية او سورية، بل كان يضع على رأسه الكوفية الفلسطينية. وبالمقابل شهدت صورة الفلسطينيين كلاجئين «سلبيين» إعادة تشكيل في الاعلام الغربي، فأصبحوا «إرهابيين» بينما أطلق عليهم الخطاب المؤيد لهم اسم فدائيين او محاربين من أجل الحرية.

وصورة اليهودي تعرضت هي الأخرى كذلك الى إعادة تشكيل بعد تأسيس دولة اسرائيل. فاللاجئ «ضحية اللاسامية» غدا في الاعلام الاميركي بطلا كلي القدرة يقاتل من أجل التحرر اليهودي. فبينما أُسبغت على احدى المجموعتين اللاجئتين (اليهودية) اسطورة البطولة، تقرر على الاخرى ان تقوم بدور «الشرير المريع». لقد أتاح الخطاب عن الصبار تحويله من لاجئ سلبي الى بطل يهودي على غرار بول نيومان في فيلمه «الخروج». ففي هذا الفيلم يصار الى تأكيد الوشائج الثقافية والجيو سياسية القائمة بين الصبار وبين الواسب الابيض البروتستانتي الاميركي. وقد كان من شأن إبراز دور الصبار كأنه نجم التجسيد للانجلو اميركي الذى يزيل عن النمط اليهودي تلك التلوينات التي تقع، في مبدئها، موقعا سلبيا في الفكر الغربي، ولتحلّه محل البطل المرغوب فيه. لقد تجسدت في شخص بول نيومان كل من القوة البطولية للجندي الصبار وللمقاتل الاميركي ليمتزجا في اسطورة واحدة ما كانت ممكنة الا بفضل الرابطة الاسرائيلية الاميركية

سياسيا وثقافيا. تومئ السردية في الفيلم الى ان الواقع الاسرائيلي قد «طبّع» اليهودي لدرجة ان لاساميا انجليزيا يتفاخر بقدرته على تشخيص اليهود، ينظر في عيني الصبار (نيومان) ولا يستطيع التعرف عليه كيهودي. وتأخذ الصلة الصبارية تعزيزا إضافيا بالمستوى اللغوي للفيلم، اذ بينما يتحدث الناجون من الكارثة المهاجرون الى اسرائيل الانجليزية بلكنة خاصة، نرى البطل الصبار يتحدثها باللكنة الاميركية السائدة. ويهود اوروبا الذين نظرت اللاسامية الاوروبية اليهم كشرقيين، اصبح بمقدورهم، من الآن، ان يُقبلوا في الحضن الغربي «مجددا» عبر الفعل الصهيوني الذي حفّز الانفصال الفيزيائي عن أوروبا، ولكنه المؤمن، في الآن ذاته، بالارتباط «الروحي» المتجدد معها. لقد كانت إقامة دولة في الشرق تحمل طابعا غربيا بمثابة شهادة على عملية إعادة تكوين يهود أوروبا الى «شعب عادي». وفي مقابل هذا لم يفز العرب الفلسطينيون بسبب شرقيتهم «المغروسة» فيهم بصفة «غربيين متنورين»، كما حُرموا في حبكات الافلام والكتب من لعب دور الابطال الذين يقاتلون من أجل تحررهم. وحيث ان رواية الوطنية الفلسطينية صيغت في اطار الصراع ضد الكولونيالية، سُلبت منهم اية شرعية تمثيل غربية.

مبعوث الغرب الاسرائيلي، الـ «يهودي الجديد»، شرع يحتل في الولايات المتحدة دور مبعوث الغرب، ليس بسبب تماهيه مع الغرب فقط، بل ايضا بسبب تماهي الغرب مع ممثلته الشرق

أوسطية: اسرائيل. أسست دولة اسرائيل صورتها الايجابية في الغرب على أساس دعوى أخلاقية تربط تاريخ ضحايا اللاسامية بمُثُل ثقافة التنوير الاوروبمركزية (كونية، تقدم، إنسانية). وطالما أقدم ممثلوها الرسميون (قادة مثل بن جوريون وجولدا مئير وابا ايبان وفي وقت متأخر بنيامين نتنياهو) على وصفها في الاعلام الاميركي بأنها جزء من «العالم المتحضر»، وكثيرا ما عُزز هذا القول بالادعاء أن اسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط، كما لم تدخر المؤسسة اليهودية في الولايات المتحدة جهدا لغرس التاريخ اليهودي وفق التفسير الصهيوني في وعي وضمير اميركا، وبالفعل غدت اليهودية متماثلة بالصهيونية والاسرائيلية، وأصبح المصطلحان كلمتين مترادفتين. وللتذكير فقط، فإن الصهيونية ظلت حتى اواخر الاربعينيات حركة اقلية بين يهود العالم. أدى تأسيس منظمات صهيونية في الولايات المتحدة الى ترسيم التفسيرات للمصطلحات من قبيل «منفى» و«شتات» و«عودة الى الوطن» باعتبارها سردية يهودية متفردة. وقد أفلحت هذه المؤسسة، منذ الكارثة، في وضع اليهود في مركز النقاش في كل مرة يُذكر فيها اسم اسرائيل، وان تحيل الى الهامش غير الشرعي كل نقد للصهيونية واسرائيل.

بهذا المعنى فإن كل إدخال لمصطلحات «منفى» و«شتات» و«عودة الى الوطن» من زاوية الخطاب الفلسطيني الى أعماق الوعي الغربي يشكل خطرا على مركز اليهود الراسخ كممثلي

الفضيلة الحصريين في هوامش الغرب المحترمة. وقد أقيمت رقابة على درجات متفاوتة من الإحكام على استخدام تعابير من قبيل «منفى» عندما توضع في سياق غير يهودي. (تقول الشائعات ان معارضة ثارت على استخدام المجلة الفصلية الثقافية «دياسبورا» المصطلح الذي في عنوانه لأنه عزاه الى الى قوميات اخرى غير يهودية مثل الارمن والفلسطينيين). والكارثة كذلك طُرحت وكأنها خاصة باليهود ولذلك تدعى «الكارثة» بأل التعريف. لذلك، على سبيل المثال، رفعت منظمات يهودية عقيرتها بالصراخ عندما حاول الهنود الاميركان شرح الكارثة التي حلت بهم بواسطة المقارنة بين كولومبوس وهتلر بقولهم ان كولومبوس هو الذي ابتدأ العملية التي انتهت الى إبادة مئات الملايين من الهنود في أرجاء القارة. ولكن، يتضح، ان المطلوب من الشعوب التي أُبيدت بمنهجية عنيفة في اميركا ذاتها ألاّ يكتبوا تاريخ إبادتهم بمصطلحات الكارثة. هذه الكلمة التي تعتبر ملكا يهوديا.

وفي السياق الاسرائيلي الفلسطيني حتى استخدام مصطلحات من قبيل «منفى» و«عودة» كان من شأنه إثارة بعض النقاد الثقافيين الصهيونيين، فكان هناك من زعم، على سبيل المثال، ان سعيد يختلق سردية بدافع الحسد للسردية الصهيونية. وكثيرا ما نبعت هذه التهمة عن مركزية اثنية يهودية تفترض ان اليهود يمتلكون الحق الحصري على مصطلحات «المنفى» و«العودة». نفس هؤلاء النقاد والذين لا يعتد بهم في تاريخ وثقافة الفلسطينيين، قرروا ان

الخطاب الفلسطيني يفتقر الى رموز قومية واضحة. جرى تشخيص عمل المثقف الفلسطيني كمحاولة لخلق محاكاة لروايات يهودية في ظرف أخذ فيه ساعد المؤسسات العربية في الاشتداد في الواقع الأميركي. رغم ان المؤسسات العربية الاميركية أقيمت في منتصف الخمسينيات لكي تناضل، من بين امور اخرى، ضد سياسة الادارة الاميركية المؤيدة لإسرائيل، رغم ذلك، فإن صوتها العلني بكل ما يتعلق بقضايا العرب في الولايات المتحدة وبالشرق الاوسط ككل لم يبدأ في الاشتداد إلا بعد حرب عام ١٩٦٧, ان مقالة يديعوت احرونوت حول «رجال م ت ف في الاعلام» تعبر وبشكل سافر عن الخشية من التنامي الحالي للمنظمات الفلسطينية في الولايات المتحدة، هذه المنظمات التي يعتقدون انها تقليد للمؤسسات الصهيونية وأسلوب عملها.

يشكل مجتمع يهود اميركا نموذجا للمحاكاة من قبل العرب. فمنذ عام ١٩٦٧ نبتت عشرات المنظمات العربية الفلسطينية المماثلة لتلك اليهودية. فالاتحاد الوطني الفلسطيني في الولايات المتحدة يشبه في وظيفته للوبي ايباك اليهودي، ومنظمة الغوث الفلسطينية اقيمت في ديترويت عام ١٩٧٨ على غرار منظمة جوينت، والجباية الفلسطينية الموحدة اقيمت عام ١٩٨٠ وحتى حروفها الاولية UPA تشبه UJA .

في نهاية عام ١٩٨٠ اقيمت منظمة عرب اميركا الناهضة للافتراء على غرار منظمة مكافحة الافتراء اليهودية. وفي عام

١٩٨٢ اقيمت منظمة النساء العربيات في الولايات المتحدة على شكل منظمة ويتسو. «الكونجرس الفلسطيني الاميركي الاول» انعقد في فندق بلتيمور في نيويورك. وفي نفس القاعة التي دعا بن غوريون منها في عام ١٩٤٦ الى اقامة دولة اسرائيل، وقف سامية بارسون، رئيس الكونجرس العربي، ودعا الى اقامة دولة دولة فلسطينية مستقلة، آملا ان يكون الحين قد حان ليفهم العالم الرمز.

في هذه المقالات يُذكر ادوارد سعيد بشكل صريح بصفته وريث ابا ايبان: الممثل الابرز لليهود «المتنورين» الذي لغته الاصلية هي الانجليزية: «بمعنى معين، ورث سعيد مكان ابا ايبان لدى الاعلام الاميركي. فلعدة سنوات مثّل ابا ايبان اسرائيل الصغيرة، الشجاعة، الذكية، العاقلة». حتى وإن كان بالامكان التحدث عن تأثير الفعاليات الصهيونية على نظيرتها الفلسطينية، فإن هذا لا ينفي ان القصص والرموز الفلسطينية تعكس تاريخهم. بل واكثر من ذلك، فالانغماس في مسألة المحاكاة يفضح خوفا خفيا كامنا من فقدان موقع اسرائيل المتفرد بصفتها الممثلة الاخلاقية للضحايا التاريخيين (بأل التعريف) عند امم الغرب، وهذا هو التعبير عما أطلقُ عليه «حسد المَقود Subaltern envy» .

المنفى، النفي والضحية مسألة الضحية هي مسألة حاسمة في تمثيل الواقع والهوية اليهوديتين من زاوية مشروع التحرير الصهيوني. إلاّ أن فكرة انه بالامكان رواية تاريخ ضحايا آخرين،

بل وان جزءا منهم هم ضحايا القومية الوطنية اليهودية، تؤدي الى معارضة عنيفة، وفي حالة الليبراليين تؤدي الى عمى ابستمولوجي(معرفى) والى بلبلة فكرية. يتكشف الخطاب الصهيوني عن اعراض عدم راحة من مجرد فكرة ان اليهود انفسهم أنتجوا ضحايا. الموروث اليهودي الشعبي يبرز معاناة اليهود على يد اولئك الذين أرادوا إهلاكهم، والاعياد اليهودية تنقل من جيل الى جيل قصص الاضطهاد على يد عدد لا يُحصى من الاعداء، بيد ان التفسير السائد للتاريخ اليهودي لا يفسح مجالا للحديث عن اليهود كمضطهِدين جماعيين. وعلى امتداد سنوات والتأريخ الصهيوني ينطلق من ان اليهودي، واستمراره الاسرائيلي، هو ضحية فقط. هذه الثقافة لم تُعدّ مفكريها لسردية اخرى. بعد عام ١٩٦٧، وعندما وجد مثقفون اسرائيليون انفسهم في موقف واضح لدولة محتلة، كيف كان عليهم المناورة مع هذا الواقع بما يتعلق بكتابة التاريخ الذي عرفوا انفسهم به كضحايا ازاء جماعات مجاورين؟ كيف كان عليهم التعامل مع معكوس قصة داوود وجوليات، حين لا يكون بأيدي الاطفال الفلسطينيين سوى المقالع وهم يتواجهون مع الجنود الاسرائيليين المدججين من أخمص أقدامهم الى رأسهم؟

كإجابة على هذا التحدي تصرفت حركات السلام الصيونية الليبرالية هذه المرة ايضا كأنما باشتراط مسبق، انطلاقا من اطار «خطاب» الضحية المعروف لها، فرفعوا ادعاءات وصفت

«السلامنجي» الاسرائيلي بصفته الضحية الأساسية للنزاع الاسرائيلي، وبشكل غير مباشر خلقوا تناسقا مزيفا بين المحتل والواقع تحت الاحتلال. ومتحدثون مثل عاموس عوز أثاروا التساؤل البلاغي: اين النظير الفلسطيني لحركة «السلام الان»؟ هذا الاستظلام يغفل حقيقة عدم التناسق في موازين القوة بين اسرائيل والفلسطينيين، وفي الوقت ذاته يغذي نسقا يطلب من الواقع تحت الاحتلال مسؤولية عن الاحتلال تتساوى مع مسؤولية الجانب المحتل. في هذا الاستظلام يتم توجيه النقاش الى نحو «السلام الان فلسطيني»، ولكنه بذاك، وبشكل غير مباشر، يحرف النقاش عن شطب تاريخ الاقتلاع الفلسطيني. يتمحور الخطاب «السلام الآني» على عذابات الصبارين، الباكين وهم يطلقون النار، الواقعين بين اليمين الاسرائيلي وبين الفلسطينيين. ويتم في هذا الخطاب تصوير رسم صورة الصبار كالحمل الوديع المأخوذ الذي يتعذب على مذبح السلام.

تمس كتابات ادوارد سعيد الطابع المتناقض للهوية الاسرائيلية اليهودية الصهيونية، ويعبر عنه في عناوين كتبه ومقالاته مثل «الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها» و«ذنب الضحية». بل وأكثر من ذلك، فكتابات سعيد تشهد على سخرية تاريخية لجهة ان الرموز الثقافية لليهودية، وبالاخص الخطاب الصهيوني، من نفي ومنفى وترحال ووطن، انما تصف الحال الفلسطيني. ولم تضطر اسرائيل الا في حالات منعزلة ان تتواجه مع فلسطينيين «متنورين»

يتحدثون من داخل الغرب ويجرون في الوقت ذاته تفكيكا يفكك اسطورة «العالم المتحضر». المثقفون الفلسطينيون يقلقون راحة سفراء صورة اسرائيل لانهم «كما يُزعم، تسللوا الى الغرب، الى ميدان نشاط بقي الى وقت متأخر ارثا حصريا لإسرائيل. من ذلك على سبيل المثال ان نقد سعيد لمايكل وولتسر يمس هذه المسألة: «ابحاث وولتسر السياسية والاخلاقية موجهة الينا في الغرب وكتاباته مليئة بنحن وبما يخصنا....». هذا الادعاء من قبل وولتسر يفترض ان «نحن» الغرب يظلل، من بين آخرين، اليهود دون العرب. على هذا النحو تُخلق طائفة من القراء مجندة للتفسير الاوربمركزي.

احتكار المنفى: قضية الضحية ومصطلحات «النفي» و«المنفى» مترابطة في ما بينها وتغرق النقاشات بين اليهود الصهيونيين وبين الفلسطينيين. حتى اللحظة، في السياق الثقافي الاميركي، كان الخطاب الرسمي اليهودي يحتكر تعابير منفى ونفي. لقد فهمت الصهيونية وظيفتها بأنها قلب خصائص الحياة اليهودية في المنفى رأسا على عقب وتحويلها الى خصائص شعب طبيعي وهو ما عبّر عنه بالقول «من المنفى الى الخلاص». بالنسبة للصهيونية كان أمرا لازما الانسلاخ عن أرض المنفى وعن ثقافة الشتات ومن ثم توحيد اليهود ال«فوق مناطقي/ العابرين للمناطق» مع «التاريخ» انطلاقا من الخطاب القومي الذي يقول ان شعبا بلا ارض وبلا دولة انما يعيش «خارج التاريخ». والشتات الذي يجب لم شمله من اربع

اصـقاع الارض وإعـادته الى الارض الموعودة انما تعـبر عن فـرادة قـوميـة اثنيـة في السـردية الصهـيـونية. لـذلك رأت المؤسسـات الصهيونية في السردية الوطنية الفلسطينية التي تشتمل هي الاخرى مصطلحات المنفى والعودة، كابوسـا مزعجا يطل عليها من المرآة. ففي كلا الخطابين، الفلـسطيني والقومي الصهيوني، تتـراءى بقعة جغرافـية واحدة بصفتهـا الفضاء الذي عبره تسعى هويات مـقتلعة الى البراء من آلام التاريخ. الا ان الفرق الحـاسم بينهما يكمن في ان مـحاولة الخـلاص اليـهودية أدت الى الازمـة الفلسطينيـة. في الولايات المتحدة يقدّم بعض الليـبراليين اليساريين الالم الفلسطيني بشاعرية كـقصة شعب خـرج الى المنفى بالضبط من تلك «الارض الموعودة» الواردة في الخـطاب الصهيـوني، ويعرضـون ايضا حلم العودة لـتلك الارض بالذات. على هذا النحو يخلق الـتوازن بين المعـاناة الاسرائيليـة والمعاناة الفلسطينـية. غيـر ان نقاشـا من هذا الصنف يتجـاهل التاريخ الذي أدى به جمع الشتـات اليهودي في اسـرائيل الى تشريد الفلسـطينيين الى اربع اصقـاع الارض. يمكن النظر الى منع ابحـار سفينة الـعودة الفلسطينيـة عام ١٩٨٨، تلك السفينة التي كان مقررا لها ان تبحر من قبرص الى فلسطين بمناسبة الذكرى الاربعين للنكبة، كتعـبير رمزي عن تحطم الحلم الفلسطيني بالعودة الى الارض، نفس تـلك الارض عاد الى تخومـها ابناؤها اليهود، والذين يعتبرون انفسهم ابناءها الوحيدين.

بالنسـبة للصهـيونيـة التي اتخذت مـوقفا يدعي الـعدل على

المسرح العالمي، فإن مجـرد تصور ضحاياها هي الفلسطينيين الذين أُجلوا على يدها ويحلمون بالعـودة الى ارضهم، ينطوي على نوع من العنف المفهـومي الابستمـولوجي. الصهيـونية من زاوية رؤية ضحاياها (بما في ذلك ضـحاياها من اليهود) تشـهد على ان حتى تلك الحركات التي قامت ردا على الطرد ليست معصومة بالضرورة عن القيام هي ذاتها بفـعل الطرد بحق آخرين. في رده على مقالة سعـيد «الصهيـونية من وجهـة نظر ضحاياها» يركـز الناقد رونالد ارونسون على الكارثة، وكأنما يستطيع مجرد ذكر «الحل النهائي» ان تدحض حـجج الفلسطينيين ضـد الصهيـونية. في هذا الانشـاء المرَضي حرف ارونسـون النقاش مرة اخرى الى اوروبا وضـحاياها اليهود. تقفـز حجتخ إلى الاستخدام السيـاسي في السياق الشرق اوسطي للكارثة، وهو استخدام يجـعل من التراجيديا التي حدثت في اوروبا وسيلة بلاغـية تقطع الطريق على أي اعـتراف بشرعـية الوطنية الفلسطينية. على هذا النحو فإن كل مـحاولة لتقرير المصير في الشرق الاوسط، وكل مـحاولة لنقد سياسـة اسرائيل، تصطدم بالرد الاوحـد: الـكارثة. الا ان هذا الخطاب يعـاني من شـروخ منطقية، ذلك ان الرد عـلى فظائع النازية لم يأت للنضال من اجل حقوق اليهود الاقلية في اوروبا، بل جاء في منطقة اخرى وحارب ضد اناس آخـرين، الفلسطينيين، الذين يدفعون من لحـمهم على الافعال اللاسـامية. ولكي يتجاوز هذا الشرخ، اسـتخدم الخطاب الصهيوني البلاغة التي تشابه بين الفلسطينيين والنازيين، كما يمكننا

ان نلاحظ في عـدة افلام مـثل «الهضـبة ٢٤ لا تجـيب» (١٩٥٤) و«اكسودس» (١٩٦٠) و«سارقو الصندوق الضائع» (١٩٨١).

على امتـداد اعوام والربط ما بـين العرب واللاسامـية ووضع الضحايا اليـهود في قلب الصراع العربي الاسـرائيلي مما حال دون الخطاب المؤيد لوجـهة النظر الفلسطينيـة في الولايات المتـحدة من التـعبـير عن نفـسه. في هـذه الاجواء المعـادية، شرع المثـقفـون الفلسطينيون في إنتاج خطاب يعبر عن المصير التراجيدي الذي لحق بشعبهم. ففي مجرد منفى المثقف الفلسطيني ما يكفي ليشهد على ان الصهيونيـة مُنتجة للنفي. ومن ثم فالتهديد الذي يثيـره سعيد، من حيث كونه يكتب عن منفى المـثقف الفلسطيني، كامن اذن في قـصة حـياته ذاتهـا[1] . ومع ذلك، ولربما اكـثر من أي مـفكر فلسطيني آخر، لم يمتنع ادوارد سعـيد عن المزج بين نقده لإسرائيل وبين اعتـرافه بما عاناه اليـهود من اللاسامـية، كمـا اعترافـه ايضا بالتاريخ المركب لمنطقة فلسطين:

و(فلسطين) هي المكان الذي بزغت الاديان فيه، وفيه، كما يبدو، استقرت رسالات دينية مختلفة، وفيه نوع من الاكتظاظ والاصداء غير موجودة تقريـبا في أي مكان آخر في العالم. وهو ايضا مكان

١- انظر ترجمة ثائر ديب لكتاب ادوارد سعيد - تأملات في المنفى- دار الآداب - بيروت - ٢٠٠٤ .

صغيــر جدا ومزدحـم. ان هذه التقاطعات، والتي هي لحـمة نسيج الدعوى والدعوى المضادة، تلفت انتباهي الى درجة بعيدة. السؤال السيـاسي، بل وحتـى الفلسفي، هو لماذا، بشكل عـام، لم يكن النصـر، في هذه البـقـعـة، حليف الرؤى الداعـيـة للاخـوة بين الجماعات، بينما نجحت بدلا منها الرؤى الفردية؟

من بالغ الأهمـيــة لي ان أفهم الانجـذاب القـوي الذي أثارته الصهـيونية في الفكر الاوروبي. . . الصهـيونية هي، كمـا يبدو، حركة وايديولوجيا التقطت فلول وبقـايا جماعة متشظية من الناس الذين، من ناحيـة تاريخية، اضطهدوا واستـغلوا وغبنوا وطوردوا في اوروبا، فجمعتهم في حركة قوية جدا خلقت الارض الجديدة. حيث توفر لها كل خصائص العنقاء الذي ينبعث من الرماد.

سـعـيـد، والذي يسـهر بـشكل دؤوب على عـرض المنظور الفلسطينـي لإسرائيل، يـعرب، فى المقـابل، عن تأمـلاته حـول العـوائق التي تقف في طريق المثقـف الفلسطيني الذي يدق ابواب الغرب حاملا رسالة ذاك المنظور. غـير ان هذه الصعوبات لا تمنعه من الاعتراف بالقضـايا الحساسة للكارثة واللاسامـيـة. تمتاز اعمال سعـيد بأسلوب جـدالي نلمس فيـه بعض الاحيـان جهدا للـتعلّم وللتخـيل بل وحتى للتـعاطف مع تاريخ اليـهود في اوروبا، وفي الوقت ذاته يشير الى التناقضات وحـتى الى اللامعقول الذي يرفعه هذا التاريخ في وجـه المثقف الفلسطيني الـذي يحاول فهم الحـياة اليهودية في اوروبا:

من بالغ الصعوبة على الفلسطيني الذي يشعر بأنه ضحية الظلم الذي اقترفه اليهود، اليهود الاسرائيليون، ان يتعاطف او ان يكون خلاقا وأن يتقبل تاريخ الكارثة ويقول: حسنا، نحن نغفر لهم ما فعلوه، لأنهم، بعد كل شيء، عانوا في التراجيديا التاريخية الكبرى الهائلة هذه، ونحن نتفهم حقيقة انهم أخرجونا من ديارنا وأنهم يضعوننا تحت الاحتلال وانهم يعاملوننا كمواطنين فئة ج، وانهم يقتلون اهلنا وانهم يحجزوننا في معسكرات... الخ، هذا كله نحن نتفهمه.

انظروا، لا أحد يستطيع ان يفهم هذا. يمكنك استيعاب الواقعة الاولى، واقعة الكارثة، ولكنك لا تستطيع ان تترجمها الى مصيرك المُر، انا أعني كإنسان آخر، المصير المُر الذي وقع عليك بأيدي هؤلاء الناس. من الصعب جدا فعل هذا. ومن الناحية الأخرى، فأنا أعتقد بصدق أنه من المهم جداً للفلسطينيين ان يحاولوا فهم مع اية قوة نحن نتصارع. لقد بذلت جهدا هائلا لمشاهدة فيلم الكارثة.. انه يستغرق من تسع ساعات ونصف الى عشر ساعات، وانا على يقين انني وزوجتي كنا العربيين الوحيدين بين الجمهور. وقد استطعت ان أحس وان أ فهم الرعب الهائل، وانتابني إحساس بالخراب لأنني أدركت الكارثة كما هي، كما يدركها اوروبي او غربي. ولكن عندئذٍ، حينما وصلت الى النقطة التي قلت فيها ما معنى هذا بالنسبة لي، توصلت الى ان المعنى هو إضفاء الشرعية على ما وقع لنا نحن الفلسطينيين كشعب. ان هذا

اذن لا معقول. يمكنكم ان تدعو هذا تناقضا، كما يمكنكم ان تدعوه تراجيديا، الا انه لا يقلل من عزيمتك للنضال ضده.

يحاول سعيد ان يقدم مناظير متعددة، بما فيها اليهودية بعض الاحيان، انطلاقا من معرفته للاسامية التي عانى يهود اوروبا منها، ولكن دون ان يفقد ايمانه الاساسي بضرورة اقامة دولة فلسطينية. حساسية سعيد ازاء هذه المواقف المتعددة نراها متبلورة في «خاصية الشتات» التي تتطلب «ليس زوجا واحدا من العين فقط بل نصف دستة منها، وكل واحدة منها تتناسب مع الأمكنة التي كتبت فيها». على الرغم من، ولربما بسبب، ما تتضمنه صياغاته من تراكيب دقيقة، كان هناك من اتهمه بأنه الممثل الاكثر ديماجوجية من بين الفلسطينين في الولايات المتحدة.



القسم

الأول

1

الحياة فى المنفى

يتصدر النقــد الأدبى الرحلات الفكرية لادوار سعيــد، إضافة إلى أنه متحدث رنان عن حقــوق الإنسان، وذلك أباح له السياحة الفكرية حول العالم عبر الكثيــر من المجالات. ساهم ادوارد سعيد بشكل مترامى فى طرح فكرة تحليل خطاب[1] الاستشراق للنقاش، والسيــاسة المنشــقة، ومــا بعد الاستــعمــار، مما جعله ينقــد أقوى المؤسسات فى العالم.

قدم ادوارد ســعيــد -بوضوح- بعض المســائل الرئيســية التي تتعلق بالامبريالية (الهيمنة الغربية) خاصة فكرة "التخلف والثقافة" مُعتبراً العالم بأثره موطنه. لذا، نــظر إلى الثقافات المُتعارضة ومنح المثقف دوراً لتحرير الإنســان وتقرير نماذج ثقافية عبر إعــادة تفسير

١- للمزيد عن موضوع الخطاب انظر الأفكار الرئيسية فى نهاية هذا الكتاب.

التاريخ. وبرؤية جديدة لنـقد ادوارد سعيد للتـاريخ يظهر أنه حقق فائدة هائلة عبر اليقظة الجبارة التي أحدثها فى الفكر المعاصر والتى أدّت إلى التنوع فى ردود الأفعال إبان فترة إعادة هيكلة العالم التي شدّت من عضد الاسـتعمار الماكر، وساعدته على مُـواصلة التحيّز للسياسية العالمية والثقافة.

ولد ادوارد سعيـد (١٩٣٥-٢٠٠٣) فى فلسطين، ثم لجأ إلى مصر بعـد نكبة ١٩٤٨، هاجر -بعد ذلك- إلى الـولايات المتحدة حيث قضى مـعظم حياته منفياً عن وطنه. لذا تولّد لديه إحـساساً عمـيقـاً بالانتمـاء إلى ثقافات الهـامش، حيث الحـياة فى غَـمرة الانتـهاك العُنـصرى فى الولايات المتـحـدة، مع الحزب الـيمـينى الأمريكى المُحافظ الذى أحرق مكتبه فى يوما ما.

تعلم ادوارد سعيـد تحمّل تبعات المُعـارضة، وكتب عن المناخ

الظالم السائد فى العالم فى مذكراته "خارج المكان". كما أثار شعور ادوارد سعيد الجمع بين المتناقضين[1] مع الإحساس المتزايد بأن تكون دخيلاً - مسيحى/ فلسطينى يحمل اسماً انجليزياً تعلقت به كُنية عربية، وفى الآن نفسه مقيم فى الولايات المتحدة.

أثناء سنوات نضوجه الأولى، بينما كان طالباً فى الولايات المتحدة، ظهر بشكل تدريجى انعزال سعيد عن الثقافة الأمريكية الداعمة لاسرائيل، ومع هزيمة العرب من قِبَل إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ حيث فُقدت بقية فلسطين؛ دفع ذلك ادوارد سعيد إلى الكتابة على نطاق واسع عن القضية الفلسطينية. و فى عام ١٩٧٧ انضم ادوارد سعيد إلى مُنظّمة التحرير الفلسطينية التي صارت بالنسبة له بمثابة البرلمان فى المنفى. ومنذ ذلك الوقت حاول بإحساس راسخ أن يمتلك فلسفته الأدبية إلى جانب الاهتمامات الثقافية بالمصالح السياسية المعاصرة.

عَمِلَ سعيد على إزالة الفجوة بين الخاص والعام. لذا كان نقده الأدبى مُتَّفقاً مع خبرته السياسية الشخصية، فضلاً عن جذوره العميقة التي شكّلت موقفه المُعارض وسط مُحاولات مُخاطبة مصداَقيّة السُلطة .

دونت قصة حياة سعيد بشكل جوهرى دال على أنه يجسد صورة للإنسان الذى كابد فى العالم، بعد أن رُويت على خلفية الحرب العالمية الثانية والسياسة الشرقية التي امتدت حتى اتفاقية

١- يقصد الكاتب أنه الجزء الأول من اسمه غربى بينما الآخر شرقى وهى الفكرة نفسها التي طرحها ادوارد سعيد فى مذكراته خارج المكان.

أوسلو ١٩٩٣ التى شــهـدت على تسـوية فلسطـين. لكن الشئ الجوهرى فى هذه الأحداث التـاريخية، هو قصّة حـياته التى تُمثّل الشكل البديل للرحيل، قادمـون،مودّعون، منفيّون مما يولّد الحنين إلى الوطن، والانتماء إليه بعد الارتحال عنوة.

يُدوّن سعيد إحساســه العامّ عندما يكون خارج المكان دائما ' وهذا يتـضّح عـبـر الواقع "الهـجين" الذى عـانى منه، أو' فى الفضاء البـينى' الذى يحتلّه بوصفه منفياً يعـيش على الحافة وسط الهوية الثـقافيـة. بينما يرى سـعيد أن هذا الموقع هو أحـد الفوائد العـامة بالنسـبة لـه، حيث يسـتطيع الكلام والكتـابة بشكل هدّام للواقع العـالمى المضطرب، فـبـالنسبـة له المُثـقّف دائمـا مُنفى أو مُهمّش".

يشعـر سعيد بـألفة عميـقة مع جوزيف كـونراد، الذي يجد كونه مـشرداً متوازيا مع تجـربته هو نفسه أو كـأن الإنسان في ' فـضاء ثالث '، تقـريبـا، خارج المؤسـسـة. مثل كـونراد الذى اسـتخدم كتـابته كوسـيلة لمنع تحطم نفسه عنـدما وعي بأن المنفى يصبح الإلـهام لاستـمرار استكـشافه للأدب والسـياسـة. وتصبح النتيجـة النهائية أن يكون الإنسان المنفى في حـالة حرب مع العالم 'الواقعى'، أى نضـال المُهاجر وفـهمـه من أجل إيجاد المستـقر والمتغيـرات ومن ثم. يصبح مشروع سـعيد أحد سبـل التحرّر من نقل الأحداث الرسمية للتاريخ و 'الحقيقة' بتشييد الوعي بالتواريخ السريّة التى تحتوي على حقيقة الواقع التى تُقمع دائما".

المثقف والموقع السياسى

فى عـام ١٩٦٨ بعد تكوين منظمـة التحـرير الفلسطينيـة أكّد سعـيد على ألاَّ يمايز مـا بين الشخصى و السـياسى لأنه قـد حان الوقت للاحتكاك الثقافى بالكاد فى السياسة المراوغة وحصيلة قراره كانت كتاباته المنشقة سياسيـاً بشدّة فضلا عن تدمير الحسابات التي تقدم تصورات الغرب عن الشرق.

ثم شهدت حقـبة السبعينيات الانتشـار عالى المستوى للنظرية النقدية الفرنسية تجاه العالم الانجلوساكسونى[1] وضمن هذا السياق اندرج ما عُرف بالدراسات الثقافيـة لما بعد الاستعمار(أو الدراسات الثقافـية ما بعد الكولونياليـة) التي انتظمت كى تتجسد كمـؤسسة منتظمة فى الكتابة ومروجة لأفكار بعينها. وهو ذلك المشروع الذى بشّر به وانتُسب إليـه اولا فرانز فانون وأيمي سيسـير، ثم تعزّز من قبل إدوارد سعيد بعد أن ظهر كـتابه الجبّار "الاستشراق" ١٩٧٨، الذي تمثَّل فيه أفكار الماركسيين[2] الغربيين الآخرين. وقد أكّد على أهمية الثـقافة والفلسفـة ضمن نموذج جرامشى وفـوكو من حيث سلطة الاستراتيـجيات الواقعيـة" وعلى ذلك تظهر فداحة مـهمّة التجديد ضمن سياق اقتصاد عالمى متوحش بعد تداعى المشروعات الاشتراكية، وبشكل خاص تصريحـات المدرسة البرجوازية الغربية

١- نسبة إلى سكان انجلترا الجيرمان الذين وجدوا قبل الفتح الرومانى، لكنها تطلق فى العصر الحديث على الدول الناطقة بالانجليزية.

٢- نهج سياسى يتبع افكار ومبادئ كارل ماركس.

للفكر المسيطر المتلازمة لأفكار فرانسيز فوكوياما فى كتابه 'نهاية التاريخ ' والمشكلات المركبة لسعيد وصرامة عمل سعيد التي تستكشف الموضوعات النقدية للتمثيل الثقافى بواسطة التحولات المعرفية التي تتخذ لنفسها حيزاً تحت سيطرة النظام الاستعمارى. "الاستشراق" و"القومية"و "فوبيا الغرب"(1) .
ومن ثم يجب النظر فى أعمال ادوارد سعيد الرئيسية التي يمكن أن تناقش في هذا السياق حسب موقعه كمفكر يُسائل التاريخ والثقافة والأدب كأنظمة للتفكير التي تمثّل صوره المبتكرة لدواعى إبقاء تراكيب الهيمنة المعرفية والقوّة. فدور المثقّف وأهميّة القضايا الثقافة وموقف الهوية تقف وراء التزامه الصارم بايديولوجيا السياق التاريخي قبل ممارسة النقد والانهماك فى السياسة.

في محاضرات ريث(2) على البي بي سي في ١٩٩٣، يعرّف سعيد المثقّف بأنة المواطن المسؤول الذي يمارس المقاومة و يحاول دائماً وضع وجهات نظره خارج مجال المُسلّمات والمواقف الحزبية الجامدة. على خلاف فكر جان بول سارتر السلبى، الذي غير بشكل ملموس الموقع التجريدى الملائم.

اتخذ سعيد وضع السياسى النشط فى كتاباته النقدية تلك التي تكاثفت كى تدل على كيفية رؤيته لأهمية الوعى النقدى للعمل

١- فوبيا الغرب: هى الرهبة الشديدة غير المنطقية من الأجانب وكراهيتهم.

٢- صدرت فى كتاب حمل عنوان" لقلم والسيف" وهى حوارات قام بها دافيد بارساميان، ترجمها: توفيق الأسدى-دار كنعان-دمشق-ط١-١٩٩٨ .

الثقافي. والنظرة 'المتخصصة' المتأصّلة في الأحاسيس خاصة بالمنفى أو كأنه ' المهاجر الجديد' الذي يعتقد دائما أن سلطة 'الخيال اللعوب" تتجسد في تغيير-إلى الأبد- عن إدراكنا لكيفية وجود الأشياء وسيرها ' .

وهذا قد يدعو إلى الانتفاضة المتخيلة- أو الجهاد المقدّس ' ضدّ واقع الإبداع المؤسسي القائم من قبل السلطات المفروضة" . وعلى ذلك يجنح التدخل الأكاديمي لادوارد سعيد في النقاشات السياسة إلى تأسيس إستراتيجيات حقيقية عبر ترجمة نشيطة وذات علاقة بكلّ القيم والأشكال والتواريخ المتعلّقة بالمشروع الاستعماري.

استخدم سعيد موقعه بوصفه منفياً للاستفادة من أنه يستطيع رفع نفسه فوق الرطانة المفرغة من أية فائدة ومن جبن المثقّفين الأكاديميين الذين يرفضون دعم القضايا الأيديولوجية عندما يُدعون كي يدلوا بدلوهم فيها. صيحة الرفض والمقاومة تند كتاباته عنها وتستحوذ على اهتمامات نقّاد أمثال إيرنست جيلنير وإعجاز أحمد[1] . وقد كانت المكونات الأساسية للناقد التي حدّدت مكانته في عالم من ضروراته الأساسية التي تُدخّله في العمل العامّ، وفي الإطار النظري العالمي وباعتبار منزلة ادوارد سعيد بوصفه فلسطيني منفي مُهمّش.

١- اعجاز احمد- الاستشراق وما بعده ادوارد سعيد من منظور النقد الماركسي- ترجمة وتقديم: ثائر ديب-دار ورد- دمشق-ط١-٢٠٠٤ .

القصة الرئيسية فى حياة ادوارد سعيد -هنا- تتصادم مع التواريخ المحلية، والنقد الأكاديمى مع النشاط العام كل ذلك مرتبط بالانهماك السياسى الذى غمر نفسه فيه. ويمكن للمرء مشاهدة العمل وعناصر القصة الهجين للتاريخ الأدبى الذى ينبه إليه كل من الاحساس الجمالى وسياسة علم الجمال عبر ما وراء اللغات الاستعمارية والثقافة.

كان ادوارد سعيد فى مقدمة المساهمين -ثقافياً- فى خلق الفنون وتضفيرها مع التاريخ. وقد شدّد فى ذلك على النقد الأدبى لكونه ضرورة تضم حقائق خبرة الإنسان الطويلة مع المؤسسات الاستعمارية ذات الجبروت والسلطة.

فى الاستشراق أظهر ادوارد سعيد كيفية المعرفة العربية البعيدة عن الاكاديمية وقد وسمت بالقوة والحافز السياسى، وتلك الاستنتاجات تم تعزيزها فى كتابه التالى" الثقافة والامبريالية" ، حيث يظهر وعى الكاتب المبدع يتشكّل حسب غلبة المقاصد الاستعمارية التي سادت انجلترا فى القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، الرواية والامبريالية التي يمكن أن تتجادل عقب تولدها عن تصادم ما.

بالنسبة لادوارد سعيد باعتباره مثقفاً إضافة إلى مسؤوليته النقدية بشكل خطر كل ذلك شكّل علامة على النقد العلمانى المهم الذى أثار انتباه قراء الغرب ووجّه نظرهم إلى الثقافات غير الغربية

؛ للوقوف على إدراك المغزى المهم فى العمليات المتفاعلة والمستمرة فى التاريخ. وبالتالى تجول ادوارد سعيد من الأدب إلى التاريخ ثم إلى السياسة. ومن علم الاجتماع إلى الأوبرا ثم إلى الفنون. لذلك، يستعرض هذا الكتاب كتابات ادوارد سعيد التاريخية من ناحية ارتباطها بالممارسات الثقافية، فضلا عن علاقة ذلك بالسُلطة. وتحديد قدر ذلك ضمن اولوياتنا للوقوف على مكانة ادوارد سعيد فى الكتابة ضمن مناطق الثقافة والدراسات التاريخية ؛لأن هناك صلة راسخة بين التاريخ وما بعد الحداثة بما يستحق أن نتتبعه. والسمة الصحيحة لذلك المراس تؤدى إلى استنطاق الحقيقة المُبهمة المستقرة فيما وراء الحسابات التاريخية و فى الأغلب كان البعض يلقى باللوم على سعيد -تقريباً- لالتزامه بالتوحد مع نفسه بما لا يجيز لاحد الاتفاق مع الوضع النظرى المفرد الذى يُعرقل التواجد الجغرافى، لذا حاول سعيد التفاوض مع الغرب برغم موقعه فى سياق العولمة.

رغم ذلك تصدى للهيمنة الثقافية باتخاذ موقف الخصم ضد أية تسوية مع نظم الهيمنة الغربية ومن ثم إنتاج المعرفة. كان -من ناحية أخرى- مدرك للصراع الثقافى مع الآخرين ومدافع عن من يحملون واقع الهجين، كما حث على رفض الاكلاشيهات البيانية المتعاقبة" ، بينما كان يدرك أن تلك الاعتراضات القوية تصبح مقبولة خلال كتاباته التي تنافس طبيعة الانماط الاستعمارية المتأصلة التي تجنح إلى خطاب بديل دائم مدرك لاستراتيجيات القوة.

سؤال أن تكون منفيـاً يرتبط بشكل أكثر تعقيداً بـعبور الحدود والهجرة التي جسدت التجارب المميزة للقرن العشرين. ومن أفضل النماذج الدالة على المهاجرين، شخص ادوارد سعيد. فموقع المنفىّ ربما يأخذ مـعناه عندما يُطـرح على المشردين الأرمن أو اليـهود أو الفلسطينيين الآخرين. المنفى المثقف الذى يجب أن ينفى نفسه عمّا أعطى له أو ما هو مـألوف ورؤيته عبر وجهـة النظر التي كأنه شئ مـؤقت غريب مُنبت وغـريب حتـى عن نفسـه". هذا هو النمط الثانى للـمنفى لذلك يتضـمن الاستقـلال وعدم الانحـياز، وتمثّل السجـايا المتأصلـة لكل من الالتزام والاسـتقلاليـة". بينما الـناقد الثقافى الملـتزم منتميا إلى العـالم الذى يقطنه وأول دواعى وجوده إلا يترك هذا العالم، كـما يؤمن ادوارد سعيد بهـذا العالم ويجعل من البشرية جـزء من تاريخه". هذا المعتقد لا يتم نيله سـوى عبر ماضى صـاحبه الشفـيف. أو بناء عالم جديد مسـتند على المبادئ والعدالة الدنيوية فيما يشبـه ستيفن ديداروس. ادراك ادوارد سعيد أنه يعتبـر أحد منتجات البيـئة الاستعمـارية. مما أوجب عليه إنماء اليقظة للمقاومـة ولاثبات ضرورة وجود الحرية الثقافيـة فى التعبير عن أية قضية عند الكتابة.

التاريخ وما بعد الحداثة

إن منزلة المَنْفَىّ تتعلق مباشرة بإمكانية التحرر المهمة اللازمة لاعادة كتابة التاريخ، فنحن الآن نقف عند أزمة تتمثل فيما يحيط بنظام التاريخ المُهال بالتشوش، بينما تحليل التقاليد والتراكيب الضمنية القائم علي تصورات المعرفة التاريخية تتآكل.

حقيقة ليس من الممكن أبداً إعادة استدعاء الماضى إجمالا؛ لأن ذلك -عامة- يعتمد على التفسيرات المتعددة لهذا الماضى مما يُسهم فى اتهام الاستدعاء بأنة مؤقت، كما أن الحقائق التاريخية الممتدة لا تنبئ عن نفسها كثيراً. والأفكار المعرفية للفلسفة الوضعية ناقصة على الأرض لأن التاريخ صنعة أدبية وكل تلك المصادر التاريخية تناصية(1) . كما إن تدخل السياسة والنظرية (النقدية) فى سياق واحد أدّى إلى أن يصبح المؤرخ فى موقف دفاعى أكثر فأكثر. فاقترابه من اللغة وتقاليد الحكى تؤدى إلى الالتفاف خارج موقع المُفسّر بشكل إجمالى وعلى ذلك يمكن الجدال -هنا- حول إمكانية افتقاد الاستقرار أحادى المعنى وقيم الاحاديث التاريخية

١- التناص أو تفاعل النصوص مصطلح صاغته جوليا كرستيفا للإشارة إلى العلاقات المتبادلة بين نص معيّن ونصوص أخرى وتشمل العلاقات التناصية إعادة الترتيب والإيماء والتلميح المتعلق بالموضوع والبنية وقد تزايدت اهمية المصطلح فى النظريات البنيوية وما بعد البنيوية التي ترى أن النصوص تشير إلى نصوص اخرى أو تشير إلى نفسها كنصوص تاريخية بدلا من الإشارة إلى الواقع خارجها. للمزيد: انظر ابراهيم فتحى- معجم المصطلحات الأدبية- دار شرقيات-ط١-٢٠٠٠-ص٨٨ . (المترجمة)

كعامل -يأخذ فى الحُسبان امتلاك أزمّة الكفاح سعياً وراء التحرر من الاستعمار، حيث تظهر الحاجة مُلحّة لتدوين التواريخ الأخرى والمعيشة التي -عندئذٍ- ستخضع كلّية إلى الفحص الدقيق.

بلا شك تجلب مفاهيم ما بعد الحداثة رؤية التطوير المهم لانضباط التاريخ، وذلك عندما تتجه إلى المنظور الاستعمارى الذى يمثل الحافز الاساسى لتدوين التاريخ الذى جاء بفضل ميشيل فيكو[1] ، ورولان بارث[2]

١- ولد ميشيل فوكو عام ١٩٢٦ حصل على إجازة الفلسفة من السربون عام١٩٤٨ عُرف عنه اهتمامه بدرس العلاقة بين الجنون والحضارة، كما تجنب الأشكال التقليدية للتحليل الماركسى أو الوظيفى أو الذرائعى ويصوغ أشكالا جديدة من التحليل يفيد منها علم اللغة لتصل فى النهاية إلى المعتقدات الأساسية الكامنة فى الشفرات البنيوة للمعرفة، كما كان فوكو أول من قدّم مفهوم "الكتل التاريخية للزمن" ذاهبا إلى أن هذا المفهوم يتيح له أن يدرس حقبا تاريخية سادتها معرفة بعينها على نحو يتحرك معه البحث جيئة وذهابا فى الزمان والمكان. اهم كتبه: الجنون والحضارة١٩٦١- نظام الأشياء١٩٦٦- اركيولوجيا المعرفة١٩٦٩- الانضباط والعقاب١٩٧٧- تاريخ الجنس,١٩٧٨ للمزيد انظر: اديث كزرويل- عصر البنوية- ت: جابر عصفور- ط دار سعاد الصباح ١٩٩٣-ص٢٩٣- ولمعرفة فلسفة الخطاب اللغوى لدى فوكو انظر: الزواوى باغورة- مفهوم الخطاب فى فلسفة ميشيل فوكو- المجلس الأعلى للثقافة- ٢٠٠٠- دط. (المترجمة)

٢- ولد رولان بارث عام ١٩١٥ فى اوج الحرب العالمية الأولى ومن اهم ما وسم تاريخ بارث النقدى تلك المُسائلة التي كان يسائل بها كل المُسلمات ولا يقبلها على علاّتها؛ كما جمع فى درسه النقدى بين على الاجتماع والنقد الأدبى، من اهم كتبه الدرجة الصفر للكتابة ١٩٥٣- اسطوريات ١٩٥٧- مبادئ =

وجاك ديريدا[1]. حيث قـامت مناهجهم وشككت فى العـلاقات بين الحقـيقـة وأنظمة السلطة التي تتـشكل منها وتحـددها. ومن ثم ظلوا يتساءلون عن العلاقة غير المُحددة والمتعددة بين الدال والمدلول أو بعبارة أخرى النوعـية السديمية للغة، حيث اللغة نفـسها تتشكل بقدر ما تعبـر عن حقيقتها المُسـبقة، وهكذا كل شئ لغوى/ وبناء نصّى.

= السيميولوجيا ١٩٦٨ وقد ترجم تحت عنوان (درس السيميولوجيا)- لذة النص ١٩٧٧- للمزيد انظر: مجلة بيت الحكمة لترجمة العلوم الإنسانية عدد خاص برولان بارث - العدد السابع- السنة الثانية فبراير ١٩٨٨- وانظر ايضاً: اديث كزرويل- عـصر البنوية- ت: جابر عصـفور- ط دار سعاد الصـباح ١٩٩٣- ص ٢٤٧,

١- ولد دريدا في الجزائر في يوليو ١٩٣٠ وإذا ذُكر تذكـر معه التفكيكية , الفلسفة, أو بصورة أدق المنهج ,الذي ابتكره وعممه في مـجال الفكر والنقد الأدبي في مرحلة ما بعـد الحداثة التي نعيش ,واستند في هذا المنهج الى قطيـعة سبق أن أعلنها نيتشه تجاه الميتافيزيقا. وتتجلـى التفكيكية في أنها تقوض مفهوم الحقيقة بمعناه الميتافـيزيقي كما تقوض الواقع بمعناه الوضـعي التجريبي ,وتحوّل سؤال الفكر الى مجالات اللغة والتأويل. ويردد بعض متابعي دريدا الى أن الأساس الوجداني الذي دفـعه الى التـفكيكية هو وعيـه المغاير منذ طفـولته كيـهودي فرنسي. أشـهر مؤلفات دريدا "الكتـابة والاختلاف" , الانتشار" ,هوامش الفلسفة" ,الحقيقة بالرسم" ,من أجل بول تسيلان". وعلى رغم ان منهجه التفكيكي أحال الى اللغة والتأويل ,إلا أن الإحالة هذه ترمي الى نسبية الحقيقة وتحولها الدائم ,حتى لا يتحول رمـز الحقيقة الى سيف يرهب مـبدأ الحياة في ماديتها وفي اجـتماعها البشري. للمزيد انـظر: مجلة بيت الحكمة- المغرب- العدد٤- يناير ,١٩٨٧ وكذلك جاك ديريدا- مواقع- ترجمة فريد الزاهى- دار توبقال- المغرب-١٩٩٢ .

هذا الجدال ظهر مع هايدن وايت الذى اعتبر كل التاريخ مجرد قصة شفوية تلفق جزئياً طبقاً لحاجات ذلك التاريخ. بينما التاريخ المُقنع ينشأ من منظور الاستخدام اللغوى بجعل من المحتمل بالنسبة لنا قول تلك الحقيقة التاريخية على أنها ليست متأصلة كبيّنة على الأحداث. وأن ذلك التاريخ عبارة عن سردٍ مُشيّد. لأن بناء الحقيقة -بذلك- يكون حقيقى جدا وتلك حجر الأساس الذى يمنحها منزلة عُليا.

التاريخ المؤسسى (أو المروى الفعلى) مُنح قدراً من القاعدة الميثولوجية للطبيعة الخارجية و الموضوعية، والواقعية والحقيقة التي تجعل المؤرخين التقليديين يؤخذون حسب ضرورياتهم. وذلك يصبح ظاهراً أكثر فأكثر عندما تظهر الصعوبات والعوائق فى وصف الماضى أو الحاضر. حيث من المعروف أن العالم السالف (الماضى بشكل عام) أتى لنا عبر مختلف القصص التي نفسرها وتخرج عن نطاق عدم استطاعتنا للانقطاع عنها. وذلك ما ينطبق على ادوارد سعيد فالتاريخ بالنسبة له ليس هو الأساس، لكن المهم هو تدوين التاريخ. وقالبه يتجسد فى ممارسة القراءة التى تتعهد بالجدال مع التشكيلة المبنية ثقافياً لنماذج المعرفة والعقائد والشفرات والتقاليد التاريخية المطروحة" . ومن هنا انتج كل كتاب لادوارد سعيد وقد تكوّن بوساطة خطاب البعض فحسب. التاريخ إذن فن وعلم ويكون حقيقة متاحة لإعلان ما حدث فى الماضى بدون تحيز؟ لكن ما طبيعة التاريخ فى عالم ما بعد الحداثة؟ وهل يتخلى

التاريخ عن البـحث فى الحقيـقة الموضـوعية المتـعلقة بالماضى؟ إذا نظرنا إلى المنـاهج منذ البنيـوية مـرورا بما بعـد البنيـوية وانتـهـاء بالتفكيكية نجدها كلها ممارسات غرضـها تقييم الماضى، عبر تقصّى الأسئلة التي ربما تقيم روابط بين التيارات الجديدة والتفكير النظرى الذى أحدث جدالاً عنيفاً لتدوين التاريخ الموثوق فيه (الحقيقى) وما نتج عنه من معرفة متنازع عليها لتـصور مناقشة التاريخ. وقد حان الوقت لإقرار أن التاريخ جاء فى مدد حـسب شروط عملية إنتاجه نفسها.

التاريخ والأدب

للإجابة عن الأسئلة السابقة يستطيع المرء أولا النظر إلى قلة الاهتمام بالتاريخ كنظرية وذلك يبدو لافتاً عندما ينتقل الشخص بين رفوف كتب التاريخ نسبة إلى مثيلاتها فى النظرية الأدبية. فقصر النظر فيما يخص كل من التاريخ الذى يأتى بالدرجة الأولى فى طرائق المناهج، وبالواقعية الساذجة التي تجعل منها قاعدة لنفسها. إن النص المطروح على النظرية غالباً ما يُتجاهل من قِبَل المؤرخين الارثوذكسيين أو من لا يؤمنون بجدية الانتباه إلى النظرية النقدية فى توجيه العمل نحو الأدب.

لابد أن ذلك يعد اعترافاً لأن القص يستعار فى الحكى الشفاهى والشهادات المكتوبة والقصص التاريخية ومن ثم يؤول ذلك إلى الأدب والبلاغة. والمدلولات تمثل تأثيراً على المقاصد والأغراض السردية، وعلى الأصح تصبح بديلا عن استنتاج الحقائق. فمن الواضح أن القصص التاريخية لها مشتركات أكثر بكثير -بشكل علنى- من القصص الخيالى بما يرغب المؤرخون عادة فى إجازته" . فالحد التأسيسى بين التاريخ والأدب يمكن أن يلتئم برؤية أن الخطاب التاريخى الذى يُعدّ موضوعاً فى نفس نوع التحليل النقدى، بخلاف أى نوع من الخطابات الأخرى، ولا نغامر عندما نقول أن تلك الحقيقة بيّنة بواسطة النص سواء كان أدبياً أم تاريخياً منذ ما قبل أن تصبح الكتابة جلية وحقيقية و شفيفة.

فى هذا السياق يمكن للمرء أن يستند على رؤية هايدين وايت التي تقـر أن عدد من أسـاتذة الأدب -فى أغلب الأحـيان- قـدم دراسة السـياق التـاريخى للعمل الأدبى كنـموذج للتصـوير الواقع للأحداث. بالرغم من أن هذا السـياق التاريخى ملموسا ومنفـتحاً على العـمل الأدبى ولا يمكنه القـيـام بغيـر ذلك". إن فـرضيـة الموضوعية وانفتاح الأجواء التاريخـية يجعلهم يتناسون أن سياقات النصـوص ذاتها تجـعل منظرو الأدب يدرسون نتـاجات القـدرات الخيـالية للمؤرخين الذين سـبق أن درسوا تلك السيـاقات، وتلك نقيصة للمنظرين أمثال هايدين وايت لأن التاريخ يجب أن يتفاوت بين الإبداع الجـمالى الأدبى والبـلاغى والتـاريخ، لذلك يجب أن يقوموا بكشف واسع الاطلاع على الأدب بما لا يدع مجالاً للشك فى تأكيد أنه ليس هناك من فرق بين الفلسفة والأدب. ويتضح أن الإبداع المتـخيل من المـاضى -الذى اختلقـه مـبدع قـديم- يجنح بصورة حسنة إلى تجاوز قيود الوثائق أو الحقائق. عندئذٍ يتداعى أى متزمت لأخـذ الأسباب لتبـعية الأدب خاصة تأطيـره المؤسسى فى القرن التـاسع عشـر الذى يُدعى فى الزمن الحاضـر بالتضـافر بين اللغات القومـية والعهود التاريخـية بعكس تلك التبعـية والارتباط الذى حدث إثر انهيار الفلسفات التـاريخية بعد نكبة ١٨٤٨ حيث أثار تنشيط القرن الثامن عـشر محاولات لتقسيم مـجال المعرفة فى المناطق المخططـة بشكل واضح خـاضـعة لمعـايـر مـختلفـة من الإصلاح. ومن الآن فصاعدا يستطيع الأدب -بشكل مدروس- أن يرتبط بعلم الجمال بينما يتجلى تميزه عن التاريخ الاجتماعى.

لكن مع الجدال المعاصر حـول مراوغة اللغة بتراكيبهـا العميقة يبدأ المـؤرخ فى الحصول على قـاعدة مـعرفـية للدراسة؛ والـناقد الأدبى متقلب جدا فيما يتعلق بفكرة دور التاريخ كمؤسسة راسخة لخيال العالم الأدبى. بينمـا -حسب ما يُعرف- تنتج سلطة الدلالة على محـاولة تباين اللغـة لإنتاج خطاب علمى. وذلـك من نتاج مدرسة التفكيكية الفرنسية إلى جانب مدرسة التحليل الانجلوأمريكى[1] التي تؤكد على النصّية وليس مرجـعية النص حسب تحديد المدلول أو المعنى التاريخى مما أنتج مدرسة فكرية شائعة.

فرضت تلك المدرسـة التاريخ كحكاية بالرغم من استـخدامه للهـوامش والاقتـباسـات والتزامن وتوقف ذلك على مـؤسسـات الشريعـة -بدعم الوثائق- وكله فى النهـاية محدد بالـلغة، وذلك بكل تأكيد يمثل تطـوراً مهماً فى فلسفة الـتاريخ كى تسعى لخطاب أدبى ذى امتـياز استناداً إلى فضـيلة انعكاس الخطاب على ذاته (أو انعكاس الخطاب الذاتى) وملاحظة أن الحقيـقة الوحيدة المدركة هى القصة والإنكار لثبات تفسير (أو التـرجمة الشفوية) التاريخ وسيادة أى قانون، هكذا يؤكد فى مواقف ما بعد الحداثة.

يمكن للفرد أن يتناقش فى انه لا حقيـقة فى كتابة التاريخ التي لها شكل قريب من المتعة والايديولوجـيا الخاصة بالمؤرخ مثل تلك المغامرة تصبح ضد الفلسفـة الوضعية وينزع إلى الشك العميق فى الحقائق المُطلقة.

١- للمزيد عن النقد الأنجلوامريكى انظر: مختارات من النقد الانجلوامريكى-ترجمة: ماهر شفيق فريد- المشروع القومى للترجمة- رقم ١٩٤- ط١ - ٢٠٠٠ .

علاقة إدوارد سعيد بالتاريخ

المناظرات أو الجدالات التي يمكن أن تطرح فى علاقة ادوارد سعيد بالتاريخ تتعلق بالموضوعية أو الذاتية أو التعدد أو النسبية أو عالمية الحقيقة. يسود ذلك فى تطوير كتابة وتدوين التاريخ عبر فعل المستشرق الذى يصحح مناطق المعرفة والثقافة والأعراف حسب موقع النزاع أو التناقض فيها، فالهدف الرئيسى هو الحرية فى جوهرها، على ما يبدو مرد ذلك إلى علماء الانثربولوجيا الغربيين والاثنوجرافيا (علم المجتمعات البدائية ووصف الثقافات) التي تعتزم اتباع ظاهرة تقليدية لتلك الثقافة التي تُكوِّن مجال التعبير الاجتماعى المتميز، إنه التاريخ والكتابة حوله التي تمنح سبباً لنهوض التبادلات الجديدة بين قوائم المؤسسة وما بعد قوائم المؤسسة والحداثة وما بعد الحداثة، ثم تجاوز هذا الجدل (أو وراء هذا النقاش) يمارس ادوارد سعيد الكفاح من أجل إعادة صياغة الهويات المختلفة ونظام لحُكم المتزعزع (أو سياسة الحكومات غير المستقرة).

ساهمت كتابات ادوارد سعيد بشكل ملموس فى إعادة تشكيل كتابة التاريخ والجدال النظرى حوله خلال العقدين الأخيرين. من قبل كان نيل الحقيقة التاريخية يأتى عبر المكان / الموقع / والسياسية فحسب. لكنه ارتفع عن النظم التاريخية إلى الكتابة الملتزمة عن الوقائع التاريخية خاصة الاحتلال. ولا يتخلى ادوارد سعيد تماماً عن قانون الطريقة التجريبية فى الكتابة والسلوك المفرغ من الثقافة،

لكن قيادته للحقائق وتأكيده على الايقونات والاشارات والرموز واللغة يساعد على تزويد المؤرخ الاجتماعى والأدبى برؤية أوسع للتاريخ. مع ذلك من غير الجائز القول أن كل حسابات الماضى باطلة(أو زائفة) فقد خرج ادوارد سعيد بالدلالة على الكتابات المختلفة للعلماء الأوروبيين التي تشكلت بالضرورة الايديولوجية والسياسية لتشييد الامبراطورية بواسطة الاستعلاء العرقى والثقافى المتأصل فى الخطط المدروسة عبر أهدافهم السياسية.

منهجية إدوارد سعيد

تنطوى مجالات تدوين التاريخ والتصوير الحيوى لكتابات ادوارد سعيد على مشكلات طبيعية فى المجالات النصّية وفهمنا للماضى تعمق إلى حد هائل بواسطة تحليل سعيد للأدب والثقافة التي تجنح إلى التضوئ على طبقات مختلفة من الناس وفئات عريضة من التجارب والخبرات التي لا ندركها نحن.

وعلى ذلك تجنح العروض البديهية لنظم سعيد المعرفية إلى نزع منظورنا المنحاز الذى يتشكل لدينا عبر الاحتكاك بالأدب والتاريخ الغربى. وغايته النهائية أن يؤكد على فاعلية الشخصية السياسية فى كل مسعى أدبى. لذلك رسم عبر تعاليمه الممتدة خبرة لكشف العلاقة المركبة بين الأدب والتاريخ فى كتابيه "الاستشراق"[1] و" الثقافة والامبريالية"[2] حيث ركز سعيد انتباهه عبر الكتابة التاريخية نفسها. عارضاً لكيفية ربط القصص الأدبية والسياسية قسراً وحصرياً فى نصوص جين اوستن "روضة مانسفيلد"، وجوزيف كونراد "قلب الظلام" وفيردى "اوبرا عايدة" كما قرر فى" الثقافة والامبريالية": "أظن أن دراسة العلاقة بين الغرب والهيمنة الثقافية على الآخرين ليست الطريق الوحيد لفهم العلاقة غير المتكافئة بين المخاطِبين غير المتساوية، لكن

١- ادوارد سعيد-الاستشراق"المعرفة-السلطة-الإنشاء" -ت: كمال ابو ديب- مؤسسة الأبحاث العربية-ط١-١٩٨١ .

٢- الثقافة والامبريالية - ترجمة كمال ابو ديب- دار الآداب - ١٩٩٨ .

أيضـا هناك الاتجـاه إلى الدخـول فى دراسـة الـتـشكيل ومـعنى الممارسات الثـقافية لدى الغـربيين أنفسهم، واختـلاف المقاومة فى القدرة على التفرقة بين الغـربى وغير الغربى الذى يجب أن يؤخذ فى الحسـبان وذلك إذا أمعنا النظر فى فـهم الأشكال الثقافيـة مثل الرواية خاصة على الصـعيد الاثنوجرافى[1] والخطاب التاريخى. وبعض أنواع الشـعـر والأوبرا حيث تلمّح وتـنظم قاعـدة الأسس الدالة على هذا التباين السائد" . من ناحيـة أخرى، كتابات ما بعد الاستشراق الـتاريخى تعدّ محاولات لتبـسيط هذا المشروع المضلّل الذى يخفى "بـنية ايديولوجيـة" وراء الواجهـة العلميـة للهوامش وإدراج حقـائق مزعـومة" . لكن -على حـد سواء- هناك نـشاط ملمـــوس لأن كل هذه التـصـــورات أعلنت باسـم الـ"أصلى" والصحيح وقيمة ذلك تحتاج للمُـسائلة أيضاً. وسلطتهم ومفهومهم يحتـاج إلى إعادة فحص بعناية حـسب كتابات سـعيد نفـسه: " القـصص تدمغ الفؤاد عندمـا تُميـط اللثام عن قـول المستكشـفين والروائيين حول المناطق الغـربية فى العالم. أيضاً تتجـسد الطريقة التي استعمرت بها الشـعوب فى تأكدي هويتهم ووجودهم حسب تاريخهم نفسه" .

١- اثنوجـرافى تعنى وصف الأعراف أو الأجناس البـشرية بغـرض التعـرّف على خصائصها وتطوراتها وتشعباتها والتعرف على جوانب التشابه والاختلاف فيما بينهـا عبـر خصـائص كل شعب ومميزاته الثـقافـية والحـضارية والعـرقيـة. (المترجمة).

هذا المشـهـد ثنائى البـؤرة الذى يمكن أن تجسده اية كـتـابة ويُستحضر ربما فى لعبـة الإبداع التي تمزج الحقيقة بالقص. وتلمح إلى الامكانيات المُطلقة واللانهائية للكتـابة. تصوير الحقيقة من أى جانب لا يمكن أن يكون ذا فاعلية مـحايدة ايديولوجياً. وقد أدرك ادوارد سعـيد مشكـلة تصوير تلك الأشيـاء فى التاريخ المعـاصر وسيـاقات وجودها مدركـاً تماماً كيف يزيفون ويسـخرون ويحطون من شان الآخرين.

أصبح عـمل ادوارد سعيـد جزءاً من هيكل أكبـر من التحليل النظرى الذى يـوضح فـهم الايديولوجـيـا وراء كـتـابة التـاريخ واستـخدام الـنقد الملمـوس فى القبض على نمط الإنتـاج الأدبى. ممارساً سطوة كبيرة مؤثرة فى توجيه الدراسات الأدبية فى الجامعات حول العالم. كما ساعد ادوارد سعيد على الالتفاف حول "القراءة ضد رغبـة المرء" فى أساليب نقدية تعضد ذلك فى مسـتوى واحد يزاوج بين الايديولوجيا وما بعد الحداثة.

وفى آن آخر ينبه البـاحث الأدبى كى يلقى نظرة شكّاكة على الهفـوات الواقعة فى الـكتابات شديدة الاهتـمام بتكريس الهـيمنة الغربية، وهناك اهتمام متأصل داخل ادوارد سعيد لاستبقاء الظواهر الايديولوجيـة فى مقـدمة التحليل الجـدلى مع تأكيـده على وجود مـوقف عـالمى جـانـح ومنحـاز يرفض وجـهـات النظـر الكليـة والتصنيفات الأكاديمية التي تفتّ من عضُد حقيقة التواجد التاريخى للهامش.

يمكن للمرء أن يلتمس انحياز سعيد وتحرره من العُرف الثقافى الإنسانى وقـد تشرّبه من ايريك اورباخ وترلنج لـنوال خاصة عـبر النظرية الأدبية المعاصرة. وفقد فاعلية ما بعد حركة التنوير تماماً فى الأصول والمركـز وفى النهاية. المعنى الضمنى هنا يتـمثل فى فكرة العلاقة غيـر المتكافئة اقتصادياً والسلطة السيـاسية التي تعمل خلف اساطير الصورة التي تجسد واقع الشرق والتى تستكمل مع الحديث الأوروبى والحضارة المادية الملموسة بدون تحليل للخطاب وهكذا لا يحـتمل المرء فـهم النظام العالمى المتـرامى للثقـافة الأوروبيـة على الإدارة وتسييـر المنتج للشرق السياسى بشكل اجتـماعى، عسكرياً وفكرياً وعلمياً وبشكل خلاّق أثناء فـترة ما بعد التنوير. لكن اولا ينبغى ذكر المؤثرات.

القسم

الثاني

2

الخطاب والمعرفة

سلطة ميشيل فوكو

أحد أروع الأمثلة للاستخدام الكبير للنظرية الحديثة المؤدية إلى انضباط التاريخ الثقافى والتى يمكن أن تُلمح فى كتابات ادوارد سعيد منهجه الذى ترسخ عبر الاندماج فى الماركسية التقليدية القديمة مع تيار الممارسة النقدية فى تحليل الخطاب لفهم العلاقة بين الامبريالية والثقافة، أدّى به ذلك إلى مناقشة الحسابات الحقيقية للتاريخ لأنها الوحيدة التي تقدم نتائج للاستراتيجيات الثقافية والتى وجّهت إلى استبقاء المكسب السلطوى (أوالنفوذ) والمادة فى إلقاء وجهة النظر محددة على الثقافة والتواريخ ومن هنا يتضح تأثر ادوارد سعيد العميق برفض ايديولوجيا الهيمنة ووضع الضرورات

السياسية للمجتمع موضع التساؤل، فى ذلك يعتمد سعيد خاصة على ميشيل فوكو، وانطونيو جرامشى[1] ونعوم تشومسكى.

جرأة تشومسكى النقدية علّمته شجاعة الخوض فى موضوعات خاصة بالقضايا الكُبرى المؤثرة فينا. ويتضح ذلك - أكثر- فى النشاط السياسى السياسى الطائفى of a community لكن المفارقة أنه بينما اهتم تشومسكى أكثر بالكتابة فى الشؤون السياسية مباشرة، أنصبّ اهتمام (حركة) ادوارد سعيد نحو التنظير لما يهتم به (يشغله) ويخصه عالمه. فيما يتعلق بذلك -إذا اخذ بعين الاعتبار - صار هو الأقرب لفوكو عن تشومسكى، بالرغم من نقد تشومسكى الذى يلقى بظلاله السياسية على فوكو من حيث تدخّله السياسى مباشرة.

١- مذكرات كراسات السجن-المستقبل العربى-١٩٩٤.

الاستشـراق نفسه مديناً بدرجـة كُبرى إلى رؤية فوكـو لعلاقة الارتباط بين السلطة والمعرفة. إذ ظهر ولاء ادوارد سعيد لفوكو فى المقدمة التي كتبها عن الاستقرار، السلطة، وقدرة تنظيم المعرفة. " . حسب فكـرة تعزيز كل مؤسـسات الحكم. يُرى هذا بـوضوح فى عمليـة المؤسسات التأديبيـة (الانضباطيـة) حسب البيروقـراطية أو الحكومة الأزلية التي تنشغل دائماً باستراتيجيات التغلب على الواقع واستمرار وجودها بفـرض القوة/ السيطرة وكسب الوجود بواسطة هدف واحد هو الهيمنة.

نموذج فوكو فى السلطـة والمعرفة اشتق من فلسفـة "نيتزشن" بشكل واضح جـداً، تلك المعرفـة استـخـدمت من قِبل وكـالات تسييس السلطة التي تقع تحت تصرفهم والتى أسست قوامات اللغة خلال كل الأشكال التي فرضتها على المجـتمع. ما الحقيقة التي لا جدال فيـها لهذه الأقلية الجـبارة ؟ إنها أفواج وتنظيـمات وضوابط للموضوع بشكـل منظم للدعوة إلى الأهداف بعمل الهيـمنة عبر الخطاب.

يعـتقـد فوكـو أنه يمكن لمجمـوعة من الناس أن تمتلك أزمّـة السُلطة لخلق وجهة نظر عالمية (أو إعادة صياغة العالم) إذا تسلّحوا بالمعرفـة، ويقول إن التدريب على السلطة يبـتكر نفسه، ويتـسبب ذلك فى ظهور موضوعات جديدة للمعرفة التي تتراكم معا مكونةً هيكل جـديد من المعلومـات". بعـبـارة أخـرى "كل من السلطة والمعرفـة يتضافر مع الآخـر". سيادة السلطة والهـيمنة فى الوقت

نفسه يهـدفان إلى المعرفة. هكذا المعرفة تُنشئ القـوة التي تِباعا لا يمكن أن تمارس بدون المعرفـة. يتولّد مثل ذلك الاسـتعمـال للقوة والمعـرفـة خطاب الذى يخلق العـقـائد (أو المذاهب) التي تعـرف جميعاً بـالـ (طبيعى) وعادى! هذه الفكرة عندما طُبّقت (أو قدّمت للمؤسـسات) والرؤى أظهـرت كيف أنهم يعـملون فى تناغم من أجل ضبط السلوك الفعل عبر استراتيجيات الهيمنة.

خلف تلك المؤسسات تكمن الفكرة وباستثـناء استبعاد الهدف الرئيسى لتشريع الوضع العالمى الراهن أو بدأ مشاريع جديدة بهدف الاستعباد أو الهيمـنة. هذا يصنع بحد كاف ويوضح من قبل فوكو فى فكرة الانضباط والعقاب كيف يحافظ على ذلك ويستبقيه؟.

لا علاقة للسلطة (الهـيمنة) بدون دستور مترابط ومـتبادل مع مجال وحقل المعرفة، ولا أية معرفة يمكنها أن تفرض (أو تقدم) أو تُشكّل فى الوقت نفسه مع علاقات السلطة الهيمنة. لابد أن تحفظ من الذاكرة -بشكـل رئيسى- أن هناك مفـهومين رئيسـيين للسلطة (الهيـمنة)، وقد سـيطرا على خطاب الدراسات الحديـثة :السلطة كقدرة كُلّية بسيطة التصرف. والسلطة حسب الارتكان على القبول بالواقع، ولذلك تستخدم الحق فى الفعل. كل من هذين المفهومين مهم لمزيد من الفهم الشامل لمستويات بنية الخطاب كافة.

بعد حديثنا عن السلطة والمعرفة، دعنى أفـسر ماذا يعنى فوكو بـ"الخطاب"؟ عندما يتكلم اللغوى عن الخطاب الإعلانى، سيعنى

ببساطة المعالجة الرسمية - ببساطة- للموضوع فى الحديث أو الكتابة.

لكن إذا وقع ذلك الأمر تحت سيطرة فيلسوف أو عالم نفسانى اجتماعى عند الحديث عن التميز العنصرى، فالقول سيكون فيه معنى ضمنى مختلف تماماً عن البساطة فى الحديث اللفظى(أوعن فعل الكلام والاتصال اللفظى/ الشفوى) على الرغم من أن الخطاب لا يمكن أن يقبض بشدة على خلفياتِ معنى واحد (أو على ما وراء المعنى) ويمكن للمرء أن يخطو لما وراء تضمين وتعبير اللغويين عن التعبيرات الاصطلاحية البراقة جداً الآن. وذلك ما يمكن أن يُكوَّن فى لحظة ما تاريخ الأمة. سيكون دائماً هناك خطاب خاص بمجموعة القواعد والاعراف التي تسيطر على (أو تتحكم فى) عمل المجتمع. إن موضة الخطاب تكون دائما تحت السيطرة وتنتظم بضوابط المؤسسات التي لها فاعلية الوكالات (أو وسائط توزيع شفرات القيادة (أو انظمة الإدارة) فضلا عن الإجراءات الاجتماعية الأخرى.

تلك الأفكار المهيمنة فى الخطاب مسؤولة عن الرقابة الصارمة التي مورست فى المجتمع، تقريباً فى طبيعة (رقابة السجن السلطوى الدائر بواسطة مراقب أو حاكم فرد فى المركز). ذلك المسؤول عن المراقبة (أو الإشراف) الاجتماعية طبقاً لقواعد الصفوة (النُخب). حسب كتابات فوكو بدلا من التقليل التدريجى لتلك الهيمنة القائمة من الحاكم، وعلى الارجح يؤدى ذلك إلى تذبذب

المعنى لكلمة "خطاب" وأعتقد أننى لدىّ إضافة فى الحقيقة لمعانيها: حيث معالجتها أحياناً حسب ميدان المعرفة فى كل التصريحات السلطوية أحياناً فيما يخصص لمجموعة من البيانات وأحياناً لممارسة منظمة التي تحسب لعدد من تلك التصريحات".

أولا يأخذ فوكو الحديث حسب تداول الكلام (أو التعبير) عامة الذى له بعض التأثير فى المجتمع، ثم بعد ذلك الانتقال بالنظر إلى مجموعة محددة من التعبيرات التي تمتلك -معاً- مفهوم واضح -تماسك سوياً- يعبر عن قوة التحكم (والسيطرة) هكذا يمكن أن يكون خطاب الاستشراق عند ادوارد سعيد يستخدم خطة فوكو لجمع الهياكل المتنوعة من النصوص من السياسة والأدب وعلم اللغة والاثنوجرافيا[1] والتاريخ لخلق خطاب غير منفصم عن الاستشراق مثل فوكو. ادوارد سعيد لا يتوقف عند ذلك، بل يستمر فى النظر إلى التراكيب التي تكمن خلف انتاج النصوص أو التعابير الأكثر حيوية المؤدية إلى استراتيجيات المعرفة والقوة والتى تصوب بسيطرة على إبداع الشرق. ففوكو ومن قبله ميخائيل باختين كرسا كل الاهتمام إلى مركز الايديولوجيا لتجسيد للمذاهب والقيم والفصول التي تشكّل طريقاً للرواية إلى العالم. كذلك لوى التوسير[2] عبر استخدام الايديولوجيا وأدوات

١- وصف الأعراق البشرية.

٢- من أهم المصطلحات التي قام بمناقشتها لوى التوسير فى كتابه المهم "من أجل ماركس" ١٩٦٥ مصطلح الاغتراب alienation الذى يعنى حالة نفسية =

ايديولوجية يؤكد -أيضاً- أن الايديولوجيا تكمن خلف الوعى بأنظمة المعنى الذى ينصب على شخص فى العلاقات المُتخيلة فى حقيقة العلاقات الواقعية بين الناس أينما يعيشون. تمنح العلاقة بين الايديولوجيا والخطاب[1] اتجاه عام ذا مغزى لفهمنا للمشروع الثقافى لادوارد سعيد على صعيد الايديولوجيا أكثر من التعبير السياسى بشكل علنى يدل ضمناً على "البساطة والعملية / التقدم السلبى الرافض للنقيض وفقاً لذلك الأشخاص الذين انخدعوا فى استخدام الانظمة التصورية التي لم تكن فى مصالحهم (أو موضع اهتمامهم). من ناحية أخرى، الخطاب مدين لانفصاله المعلن من الانتماءات السياسية التي ربما تنتسب بشكل ما إلى فكرة الهيمنة لدى انطونيو جرامشى[2] التي يتواطأ فيها الناس مع مرءوسيهم.

= اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعى وينطوى المصطلح على مفاهيم متعددة بتعدد الفلاسفة الذين الحوا على استخدامه، خصوصاً هيجل وفرويد وماركس الذى ربط الاغتراب بتقسيم العمل والتوزيع غير المتكافئ للسُلطة والأرباح. انظر عن سيرة التوسير. اديث كرزويل- عصر البنيوية- ت: جابر عصفور- صص٦٣-٩٣ .

١- يشير مصطلح الخطاب إلى الطريقة التي تشكّل بها الجمل نظاما متتابعاً تُسهم به فى نسق كُلّى ومتحد الخواص، وعلى نحو يمكن معه أن تتآلف الجمل فى خطاب بعينه لتُشكّل نصاً مفرداً أو تتآلف النصوص نفسها فى نظام متتابع لتُشكّل خطاباً أوسع ينطوى على أكثر من نص مفرد. انظر المرجع السابق ص ٣٧٩ .

٢- ميّز جرامشى بين نوعين من الهيمنة الاولى الخاصة بالمجتمع المدنى والفصل بين السُلطات وهو نتاج للصراع بين المجتمع المدنى والمجتمع السياسى فى فترة =

تأثيرفوكو

بشكل واضح تتعلق السلطة بالمفاهيم الايديولوجية[1] والخطاب، بتلفظ أكثر توهجاً بواسطة فوكو الذى قدّم وجهات نظره عن العلاقة بين الحُكّام والمحكومين التي أوحت لقدر من الأدباء والنقاد الاجتماعيين للتطلع للإجابة عن الأسئلة "من يستطيع أن يتسبب فى عمل ماذا؟" .

على الأصح -بالنسبة للمستوى الأكاديمى فحسب- تظهر نتائج بحثه المهمة إلى حد كبير جداً عند وضع ادوارد سعيد لأفكاره السياسية الفعّالة كى يُعلى من الوعى السياسى-على الأقل- لدى أولئك الذين آمنوا -بصدق- بفكرة الديمقراطية.

= تاريخية محددة وتتميز هذه الفتر بنوع من التوازن غير المستقر بين الطبقات وهو نتاج لواقع أن بعض فئات المثقفين (الذين فى خدمة الدولة مباشرة، وخاصة البيروقراطية المدنية والعسكرية) لايزال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطبقات المسيطرة القديمة-انظر انطونيو جرامشى-كراسات السجن ت: عادل غنيم-المستقبل العربى-ط١-١٩٩٤-ص٢٥٨، وهيمنة الثقافات الغربية على الثقافات العالمية التى تتمثل بقدر ما كانت عناصر مكونة للثقافة الأوروبية وهى الثقافة العالمية الوحيدة تاريخياً وواقعياً ؛ أى بقدر اسهامها فى عملية الفكر الأوروبى وتمثله لها. نفسه ص٤٣١ .

١- Ideology ايديولوجيا نسق من الآراء والأفكار التي هى جزء من البناء الفوقى، والتى تعكس -بوسائط وعقدة- العلاقات الاقتصادية فى مجتمع من المجتمعات وتؤكدها فى الوقت نفسه مما يجعل منها نوعاً من الوعى الزائف يؤكد علاقات انتاجية. انظر: عصر البنيوية ص ٣٨٩ .

وجّه سعيد اهتمامه كاملاً إلى فكرة فوكو حول الخطاب الذى يحاكى الحقيقة بشكل مثالى وقاطع بجدية "مجالات الموضوعات المترهلة أو الطقوس التي تبدو فى الظاهر حقيقية" . كما سنرى أن الشرق يتحول فى استطراد إلى "مشرق" بواسطة هيمنة الغرب فى كل تواريخ الامبراطورية. لادوارد سعيد معارضاته لفلسفة فوكو. على أية حال فيما يتصل برؤيته و بأنه ليس هناك عمل قوى وواعى وراء السلطة. عامة فكرة فوكو تحرم الوقائع القمعية، وترفض النظر إلى فكرة السلطة حسب ادراك (أو تصور) قوة الهيمنة التي دائما تسلطه، منحدرة من مؤسسة أو الولاية لتستقر فى الواقع الأعلى. يؤكد ذلك عنصر غير شخصى فى عملية السلطة التي تحمل لها هدفاً لتصميم الموضوعات الحقيقية وصياغة وتواريخها. بالنسبة لادوارد سعيد الأمر ليس كذلك، لأنه بدلا من أن يحافظ على الخطة الواعية والمقصد من وراء الهيمنة الغربية على الشرق بواسطة الحكومات، ورؤية أن المؤلفين / الأفراد ليسوا ببساطة الوكلاء (أو العملاء)السلبيين لمثل هذه الاستراتيجيات.

إضافة إلى ذلك، بينما يهتم فوكو بتبنى تقديم نظرية الهيمنة "النزاع" أو المقاومة، فى مظهر (أو واجهة) القوى الاجتماعية فقد غاب عن تفكيره النضال من أجل التطور المنتج لنظام الخطاب. على الرغم من اهتمام فوكو قليلاً بنجاح الممارسات القمعية بقدر ما تضطرب استراتيجية المقاومة طالما أن استراتيجية المقاومة تتعلق بها.

يدرك سعيد اهمية انطونيو جرامشى ورايموند وليامز. ويجادل بأنه من الخطأ القول بمعارضة دعـوة هذه الممارسات المعارضة بدون نظرة شمولية لأن كتابات فـانون، سيدالاتاس، عبد الله العروى، بانيكار، شارياتى، والروائيون امثال نجوجى واثيونجو[1] . وسلمان رشدى بالإضافـة إلى كل الكتابات التي تمثل ثقافـات الأقلية ولها قوة راسـخة هدّامة للاحـتجاج والعـتالى النصّى للصـيحة العـالية الملازمة للسلطة، لذلـك فإنها لا تقهـر أحادية الاتجاه الموجّـه نحو السلطة. اقتبس ادوارد سعـيد من وليامز ليعزز تعـارضه مع فوكو وتوافقه مع جـرامشى" من ناحية أخرى -مـهما يكن- ربما تكون الهيمنة نظام اجـتماعى، بل المعنى ذاته يتضمن الهـيمنة تحديداً أو انتخاب النشاطات التي تغطيه. لذلك من قبل التوضيح فإنه يعجز عن استنفاد درس كل التجربة الاجتمـاعية للهيمنة، عامة من أجل ذلك يضـمن دائماً فضاء كامن للأفعال البديلة والنوايا الخيارية التى تعجز عن اتاحتها المؤسسة الاجتماعية أو حتى السُلطة".

لمزيد من التـأسيس النظرى لمناظراته يسـتخـدم ادوارد سعـيد تأريخ فوكو للجنس والنظام والعقاب. لكنه على حد سواء معتمد على جرامشى فى استخـدامه الإبداعى للهيمنة على الرغم من أنه يُكيّف المصطلح (أو التعبير) ليتناسب مع اطروحته المّتاحة.

١- اشتـهر نجـوجى واثيـونجو بروايتـه "لا تبك يا بنى" التي صـدرت عام ١٩٦٤ وكانت من أولى الروايات الـتي جعلت العالم الأدبى يدرك أن كُـتّاب افريقـيا كانوا يقدمون اسهاماً جديداً أصـيلاً فى الأدب العالمى ثم تلتها روايتاه "النهر" و" حبة القمح". انظر: نجوجى واثيونجو-تويجات الدم-ت: سعدى يوسف- دار ابن رشد-بيروت-ط١-١٩٨٣-ص٥٢٥ .

ادوارد سعيد وجرامشى

تشبه فكرة جـرامشى عن الهيمنة التلقـائيين الذين يُقبلون من الجماهير (الطبقات الدنيا من المجتمع) لحماية السُلطة بواسطة طبقة الأقلية خلال استخدام الأقنعـة والتعاون معها ,هذه الموافقة سببها الهالة الكبـيرة وهيبـة مجمـوعة المهيـمنيين الأساسيين (أو قـاعدة الهيمنة البشرية الأساسية) التي تتعامل برسوخها وثباتها الاجتماعى والاستراتيجيات السياسية للمحـافظة على قبول الطبقة الاجتماعية الشعـبية التي -من ناحـية أخرى- يجب أن تجـمع على الثورة رداً على مثل هذه الهـيمنة. الهيمنة تدل ضـمناً على كل من السيطرة عبر الموافقة بالإضافـة إلى إدراك الحالات الثورية للخراب (الدمار) الذى يواجه دائماً حاضراً فى السيطرة الاجتماعية. هيمنة جرامشى عبر ما هو غير ملحوظ.

التي تفل عن اسـتخدام الاقناع بشكل غـير واعٍ يلفت عـامة الجماهيـر. لإنجاز ذلك يتم فرض اللغة وخلالهـا تتم كتابة الأدب والتاريخ للعب دور مـهم فى إرساء النُظم والمؤسسـات التي تحفظ (تُخلّد) وتدعم ايديولوجيا الطبقة المسيطرة.

الأدب البريطانى والتـاريخ -على سبيل المثال- بالإضـافة إلى اللغة الإنجليزية -لهـما وظيفة نشر الأفكار الـتي تُسهم فى سيطرة الهيمنة لطبقة واحدة (بعينها) بواسطة الآخر.

تطورت أفكار جرامشـى -ضمن سياق النص، لموقعـه كأحد

القادة والزعماء الرئيسيين للحركة العاملة الإيطالية. وقد تشكّلت جميعها وظهرت فى سياق سجنه الطويل تحت سطوة الفاشية. أدى ذلك إلى إعادة النظر -ثقافياً- وكذلك القدرات الأدبية والفنية. اعتمد ادوارد سعيد على عمل جرامشى الرئيسى "اختيارات من دفتر ملاحظات السجن"[1] . حيث مشروعه القائم على استنهاض فكرة الاستشراق والدفاع عن مركزية الثقافة الديمقراطية لفهم ذلك المشروع الذى يجابه الامبريالية والأزمان الفاشية.

أفضل أعمال الهيمنة تتجسد فى خلق التشويش على الافكار المتعارضة فى عقول الجماهير عندما يتشربون القيم الثقافية ومعتقدات (أو مذاهب) الطبقة المسيطرة ويلزم ذلك عمل تلازم قبول التباين (أو عدم مساواة الطبقية الاجتماعية) والقمع وكأنه طبيعى وغير قابل للتغيير.

تلك هى فكرة جرامشى المُعلنة التي مكنت الغرب من خلق أساطير القوة والهيمنة تماماً وهو المصطلح السلبى فى قاموس جرامشى الذى يصبح فى موقع البناء الايديولوجى القار حقيقة فى الواقع.

صيحات جرامشى للنقد جسدت ذلك التلقين للحس العام الذى يعتبر بالنسبة لسعيد مهمة الناقد المختص الذى يستكشف

١- ترجم تحت عنوان "كراسات السجن" انظر: انطونيو جرامشى-كراسات السجن ت: عادل غنيم- المستقبل العربى-ط١-١٩٩٤

طبيعة المقاومة الايديولوجية لفكرة الهيمنة فى الواقع.

الافتراضات التي استقاها ادوارد سعيد من جرامشى مكنته من إضافة بُعداً قياسياً إلى الدراسة لكل من حسابات التاريخ الاستعمارى والمقاومة الثقافية، مما أهّله فى النهاية لفهم نظرية السلطة السياسية بينما يمنح الأولوية للعمليات الثورية عند صناعة التاريخ. هكذا برفض مشهد التاريخ فى نقد التغير الثقافى فى فترات الاستعمار وفكرة القصة المطولة الواحدة أو المفردة فى أى مسار (أو منحى) تاريخى.

حسب أساطير النفوذ تلك الناقد الملتزم والقيادة الايديولوجية لابد أن يتفُهما عبر مخطط جرامشى المقارن بين الهيمنة والسيطرة. حيث أراد فكرة الهيمنة حسب سير الاستراتيجية إلى الهيمنة كمفهوم (كتصور) وأداة لفهم المجتمع إيذاناً بتغييره. الهيمنة لها مستويان "شعبى وقومى" قياساً على مستوى الطبقة الموجهة إليها مما يتطلب توحيد أشكال (وتعدد عناصر) القوى الاجتماعية المختلفة فى تحالف واسع ومترامى وشامل يظهر الإرادة الجماعية الشعبية الوطنية.

من وجهة نظر الخطاب الاستعمارى الذى عرض نفسه على انه عملية إعادة تنظيم أشمل الذى يحتاج إليه لتأسيس الهيمنة الغربية. إنه طريق لتحويل سُبل التفكير الشعبى وشعوره ومفاهيم الناس أنفسهم (الشعب نفسه) حسب المعايير الأخلاقية و التاريخية

التي يفـرضها ذلك الخطاب. وتحـول الوعى الشعـبى عامـة مداره حول خدمة و مساعد الهيمنة الغربية بغرض تثبيت القاعدة وقوانين الحكم والسيطرة الأجنبية.

اهتـمامات سـعيـد النظرية تتـفق مع الموقف الايديولوجى و الاتجاه الجمالى الماركسى فى سياق النص. حيث يرى ادوارد سعيد النصوص الأدبية والقيم الـتاريخية للغرب مثل صور ثمـينة متاحة للسُبـل التي تعمل فـيها الهـيمنة. يسـتعـمل دوارد سعيـد تحليله التفكيكى للنصـوص الاوروبية المختلفة مثل نموذج لدفع و تفـسير الزمن الذى يجـعل من الممكن فهم السلـوكيات التـي استعـملت للقـمع وتصوير ذلك عـبرإعـادة إنتاج الأدب أو الموسـقى. هكذا تصبح الأفكار حيزاً لعلاقات الهـيمنة والمعرفة التي تعمل فى تتابع وتراتب على حماية السلطة.

استخدم سعيد أفكار جرامشى لتأكيد الحاجة إلى المثقفين الذين يتصدون بقوة للممارسات الاستبدادية، ويكونون -أيضاً- مدركون لاستراتيجيات القمعية للاساطير الغربية المهيمنة.

كتابات ادوارد سعيد تحت تأثير جرامشى لها أهمية مستمرة فى وقت يتسع فيه انتشار التراجع من المواقع الماركسية فيما بين من هم على يسار ما بعد الحداثة.

نظرية جـرامشى تضطلع بالإنتـاج الثقـافى والبحث النـقدى وعندما طُبّـقت لسعـيد أتت خارج الموضـوعات ذات العـلاقة مع

الهيمنة الاجتماعية والتدمير الذى يحدث بشكل مستمر لمقاومة أية أفكار ثابتة عبر السلوك الثقافى الخانع. ومن ثم فالنقد الثقافى لادوارد سعيد -حقيقة- ينقذ التفكير الماركسى من الحتمية(1) والانخفاض الاقتصادى الذى يجعله يقع فريسة للآخر الغربى.

أخذ سعيد نموذجه فى الكتابة المرجعية للتاريخ عندما كان هاجسه الرئيسى مداره حول فكرة مادية الأفكار. والتنظير السياسى لمفهوم الهيمنة الذى تم تداوله أساساً عبر أحد المقترحات الضمنية القائمة على حيوية اللغة حسب إثارتها والبناء الاجتماعى النشط الذى يلعب دوراً مادياً (ملموساً) فى خلق التاريخ الاجتماعى للعالم. بالنسبة لجرامشى وادوارد سعيد لم يُقدّر التاريخ بعد جهدهما. منذ تأثرهما بالأفكار العالمية ورفضى المسيطر منها ليس على مستوى الاقتصاد وحده. بل بقى بوساطة الماركسيين الأرثوذكس لا جرامشى ولا سعيد إيلاء أهمية إلى الأفكار العالمية منذ أن صدقا أن كل الأحداث والأفكار مُترّخة (تم تأريخها) وموضوعة ضمن سياق الزمان والمكان.

١- مذهب الحتمية يقول عن كينونة أو أفعال المرء هى ثمرة عوامل لا يستطيع اختيارها. (المترجمة)

ادوارد سعيد ومشروع التنوير

بينما تتحدد مشاكل تحليل الخطاب فى مجال التاريخ الاستعمارى، فإن لإدوارد سعيد كثيرًا من التعريفات التي تستقر مركزياً على مشروع هيمنة التحرر الإنسانى منادياً بحركة التنوير. أكد مشروع التنوير على التقدم الذى يمكن أن يبدأ من الآن فصاعداً من العقل الغربى، كما رأى سعيد أن نماذج حركة التنوير المُسببة للتقدم لديها جدول أعمال متوارى حيث تسبب ذلك فى خلق ممارسة الاستعمار الناجح.

إذا بقية العالم صنع بقائه القائم على مجموعة القوانين الإنسانية. فالاستعمار سيجد مبرراً لازدهاره غير المحدود (منقطع النظير) على مستوى العالم الواسع لنظام الاستعمار، ثم توظيف الثقافة بدافع نيل قبول المستعمر. لماثيو ارنولد الذى اشتهر عام ١٨٦٠ أقواله المأثورة " الأفضل هو من عرف وفكّر" فكان ذلك مقدمة لكل من التنوير وقبول المعيار الجديد للتحرر الإنسانى الذين استعمل كمسوّغ للاستعمار.

مما يظهر أن الضحية كانت فى حاجة لمثل هذا التأثير وليس مقترف الجُرم هو المحتاج إلى ذلك. طبقاً لمناظرة الحُكّام كان لزاماً على المستعمر أن يلتزم بإرساء قواعد البربرية الافريقية أو (الهمجية) الهندية، فذلك ضرورى لتثبيت جداله. وبالنسبة لإنجاز الأوروبيين "مهمة التمدين" فقد ظهر حديثاً منذ أن خنع البربر إلى الاستعمار. وقع ذلك عبر الآراء المرتبكة التي استندت على معرفة

من يُعتمد عليه، حيث الثابت والشخصية الجوهرية للطبيعة الإنسانية. والنتيجة كانت إنتاج خطاب ثابت لأجناس بشرية دون المستوى يظل المستعمر متقدماً عليها.

هكذا شاعت الثقافة الأوروبية وبلا نقاش صارت مقبولة عبر تفوقها المُعترف به عالمياً. مثل هذه الايديولوجيا السياسية تمنح قبولاً غير ملموس للإنتاج الثقافى. ودائماً يُقبل من الطرف الخانع ولا يعترض أحد عليه. لهذا السبب بدأ المثقفون التقليديون مُسائلة واقع عنف الاستعمار / الامبريالية الراسخة، و فى بعض الحالات، دعموا ذلك المشروع عبر كتاباتهم حديثاً أظهر التواريخ ضد الحال التأسيسى لمشروع التنوير الذى كان عارضاً على استنتاج الهوية وسمة مؤقتة للبناء الاجتماعى. كلنا الآن نتقاذف الفكرة المضادة إلتى يبالى بها أى تساؤل أو الظواهر الموضوعية المحسوسة لفكرة هيمنة الغرب مقابل رؤية التنوير حتى لو كانت فكرة التنوير قد صارت درباً من الماضى.

ادوارد سعيد وفكرة الاستشراق

رصدت الطفرات الجدية فى البحث العلمى حول موضوع الامبريالية نتائج المشروع الاستعمارى الأوروبى. السبل التي يستطيع بها الغرب أن يبحث عن هياكل القوة (بناء النفوذ) التي يفهم بواسطته ويستوعب ويقدم فكره، وإذا لم يكتشفوا إحداها يختلقونها ثم يسيدونها عبر الأدب وفقه اللغة التاريخى والانثربولوجيا الاجتماعية التي تؤكد -عمداً- اختلاف الامبريالية وتميزها فى الآن نفسه. لكن ذلك أثمر فى النهاية عن تجرد تلك المجتمعات الإنسانية من نفسها وهويتها نتيجة لتلك الدراسات.

لم يكن الاستشراق -أبداً- علماً غير جدير بالاهتمام، حيث عمل على مُسلّمة قائمة على العلاقات غير المتساوية بين الأنا والاخر مع دفع إلى تحديد كيف يمكن أن يتم احتلال الأرض ومن ثم إدارتها ؟ عبر المُسلمات الضمنية المصرّة على ادعاء أن الشرق هو ذلك المتخلف الشاذ التابع العاجز عن تعريف نفسه".

مثل تلك الرؤية تأسست استندت إلى الجانب الفلسفى للمركز الذى فى النهاية يطور المفهوم الأكبر للتعصب لأوروبا فى مقابل الهامش المتخلف,طبقاً لادوارد سعيد مغزى ذلك خالى الوفاض الاخلاقى ويحمل أساس تدميرى. يستخدم سعيد فى الاستشراق مرثيتين؛ أولاها رواية تردد: " الشرق مهنة" والآخرون منذ ماركس حتى تصوير المزارع العادى فى بداية القرن ١٨ لدى لويس بونابرت" لا يستطيعون تصوير أنفسهم، يجب أن

يصوروا أو يمثلهم غيرهم؛ عندئذٍ سخر ادوارد سعيد من المشروع الخرب الذى يمكن الهيمنة الحضرية من تلفيق التاريخ الامبراطورى. بعبارة أخرى يقترح البحث النقدى كى يمارس تماماً تصوير المقاومة التى يمكن أن تكون نهائية وفاصلة فى الأمر أو صحيحة.

يقدم سعيد ثلاثة تعاريف للاستشراق الأول والأسهل يعرف الاستشراق كدرس أكاديمى للشرق من قِبَل العلماء الغربيين مستعملاً مفهوم فوكو الذائع للسلطة / المعرفة. ثم يقيم سعيد صلات بين ذلك التعريف والتالى له، حيث يخلق دراسة الهيكل المعرفى الأكثر نفعية بين مHيستعمله المستعمرون الغربيون كوسيلة لكسب السلطة، على سبيل المثال، يجادل سعيد حول الاهتمام الأكاديمى فى اللغات الشرقية التي اثيرت من قبل العالم السنسكريتى السيد وليام جونز الذى اختطف من قبل الانجليز المستنفيعن بالنهايات السياسية.

مجال الدراسة انصب على موازاة مع المؤسسات العلمية التي مثلت أى شئ كائن لكن بلا فائدة حيث أصبحت الدراسة عن المشرق نشطة عبر نظام إنتاج نفسه فى القرن التاسع عشر الذى يمثل قمة التوسع الاستعمارى ،ويزود الإيمان بجدل سعيد المعرفى الذى يتلخص فى السلطة و القوة على الشرق ثم بداية الحديث عن السيطرة. يستكشف ادوارد سعيد ايضاً التفسير الثالث للاستشراق حيث العمل المعرفى والفروق الوجودية بين الشرق والغرب.

الغرب الذى يؤبد أنماط القوالب الجاهزة للتطور و البربرية همجية، تقدم / بدائى رئيسى/ تابع. عقلانى / ضال وهكذا. تتهاوى جميعاً فى ازدواجية عظمى بين النفس والآخر. أفكار فوكو المتطورة فى

الاعتداء المتوالى والاخفاق الحضارى جعلا سعيد يوضح كيف للـ"آخر" أن يُسيّد ويختلق كى يولّد رأياً فى الـ"نفس"، هكذا يصبح الشرق بديل (أوخليفة) "نفسه" الذى يعمل علماء الغرب على عدم الاختيار والاعتراف باشياء جوهرية يفتعلها مثل الوحشية، الشهوانية الانحطاط وهلم جرا وغالباً يأخذ طابع "خصائص" الآخر الغريب. أيضاً يتوجهون كى يروا حسب التجانس الذى يرتضونه الناس هناك يصبحون مثل الجماهير المجهولين المهمشين أو على الأصح استبدال الفردى بالجمعى.

الاستخدام غير الملحوظ للقوالب الفكرية الغربية الجاهزة يتمحور حول الطبيعة العنيفة والحسيّة المفرطة للشعوب التى منحت وولدّت القسوة المنطقية وممارسة حقوق الاستغلال الطبيعية للاستعمار. حيث يمكن للمستعمر أن يبرر استعباده وحتى إبداته التي يمارسها عبر منطق "مهمة التمدين" التي أصبحت حسب بيان الخطابات أحد أهم "أعباء الرجل الأبيض".

الاستشراق أصلا يتكون من عدد من المحادثات التي تتدافع بشكل مستمر مع بعضها بعضاً فنتج علماً مستهلك الذى يعتبر

دافعة الرئيسى أن يستخـدم المعرفة والسلطة لإنتاج الهدف الرئيسى للدراسة. تكثر الأمثلة التي تعزز ذلـك فى قصة الرحلة الفيكتورية التي تتـخيل الشـرق كـأنه "حريم مـهيـب (ضخم) بالإمكانيـات اللانهائيـة من المتعة والإفـساد، مما يؤدى إلى ازدهار الاستعـمار. قصة السفر مع المعلومات المبالغ فـيها والحسابات الوهمية للأراضى البعيـدة. إنتاج الخطاب الاثنوجرافى من الهمـية المبالغة كـما تقدم المعلومـات حـول الثقـافـات المحلية التي كـادت أن تكون هامـدة وخرقة.

رادير هيجارد "الملك سليمـان المنهك" يظهر شكلاً آخر حول الامبـريالية الغربية والحـديث لمرافقه الذى ينحـو إلى السيطرة على المرأة المُستعمرة، لكونها بضاعة مسلّعة فى رمى القوة المهيمنة.

تصبح الجنوسة[1] ليست شيئاً أكثر من نوع جنس ما، وتأخذ من علم الدلالة ليست الجـهد الوحيد لكن الاستـغلال والتحكم" فى الخطاب الغـربى الملكات،الأميـرات المسلمات يتـمثلن كـأنهن خائنات مغويات يلتمسن رؤية ثقب مختلف من الحياة مختلف عن الإحساس المسيحى القائم على القيم الأخلاقية، ذلك الجدل حيث إن العالم المسيحى وقف على القيم الروحـية وتصور الشرق سماء الرغبة والطمع.

الرحالة فى أغلب الأحيان وصفوا الشرق على أنه مكمن اللذة (المتعة) حيث المكان الذى يزود الرجل الأبيض بالعـبيد الشهوانيين

١- Gender

والحـريم الممتلئـات بالعـواطف الأنثويـــة الجيّاشــة. التــاريــخ الجنسى للقاعـدة الاستعمارية الامـبراطورية البريطانية تشـهد كيف كانت المـواقف الجنسيــة للشباب الغـض من المدرسة حيـث كانت المغامـرة الجنسية الغريبــة وامتلاك العشـيقات والتمـتع بزيارة بيوت البغاء" .

من نصوص شكســبير ينهض الشرق على إرضــاء الأحاسيس والرغبة الجنسية ونسيان كل علاقات (أو شؤون) العالم بالقدر الذى تجســد فى صورة كليــوباترا. روما على النقيض مــن ذلك، تستند على صــرح من الثقــة واحتــرام الامــبراطورية. انطونيــو تمزّق بين الغــرب والـشــرق حـيث انضــم إلى زواج سـيـاسى مـع الحكيم "أوكتافيـا" لكنه لم يستطع التخلّى عن كليوبترا التي تـبدو جائعة عندما تصبح أكثر رضا، كليوبتــرا فى مركبها تصور "إبداع الشرق لنظرة الغرب لنـموذج المرأة الشرقـية المُغرية، ملكة مـرغوب فيـها (جذابة) فاتنة تغرى الرحالة المستكشف الغربى" .

بلا شك تصوير الكُسالى والمواطن الشـهوانى تجيز للمســتعمر أن يبرر إلى القارئ المقيم فى موطنه الأصلى أن المهمة الاستشراقية الأساســية تتــجلى فى تمدين (تحضّــر) همج الشرق (بربــر الشرق) وبذلك ينعم بتــأييد شعـبى لاخضاع كل القــارات تماماً مثل بعـثة سيلفــيسترايس التي ســاعدت على صيــاغة التصوير الإمــبراطورى للعالم. السبب التاريخى والعلم كان قد ذاع صـيتهم لالتقاء بنهاية حكمه بدون إحداث أغـلاط واضحة للرأى العام وأيضاً اسـتغلال

الرهبة المفرطة(1) جدا من الأجانب.

أدلّ الأمثلة على ذلك رؤية المستكشف الارستقراطى الانجلوساكسون بان باول، إشارة دييجو إلى أن عطيل مثل "فرس بربرى" كلها أمثلة تزكى صورة القالب الجاهز للرجل التقليدى البدائى بتأكيد سافر على تفوق الجنس الأبيض على الكُسالى، الجبناء، الخونة الشرقيين. هذه الأنماط من التفكير العنصرى كانت قريبة إلى وجهات النظر الفيكتورية على اختلاف طبقيتهم فضلا عن تغذية الخصوصية الشخصية للأوروبيين مما يُخوّل لهم تعزيز الأغراض (الهياكل) للبنية السياسية فى موطنهم.

تمنح الدراسات الاستشراقية السيطرة والمعرفة التي تستحوذ على مساندة الامبراطور (الاستعمار) نماذج السرد الغربى التي ألفها الانثربولوجيون وتهيأت (عبر) بنية خطاب الهيمنة القائم على الإثارة والخطأ الذى بدأ الآن يشكك عبر البارمج المراجعة التصحيحية للمؤرخين ونقاد الثقافة ما بعد الاستعمارية أمثال ألبرت ميمى الذى جادل وناقش الاستعمار كدلالة ضمنية على الانتقال من التاريخ الشخصى إلى التاريخ العام، تلى ذلك صنع التاريخ الأوروبى كبنية امبريالية (استعمارية) حيث يجب أن نتشكك به كى يلغى الهيمنة الغربية "وقبولها الايديولوجى" لأى خطأ كأنه حقيقة".

١- Xenophobic زينوفُبية: هى الرهبة الشديدة غير المنطقية من الأجانب وكراهيتهم. (المترجمة)

تفكيك الأساطير الأوروبية للشرق دخلت فى سياق سياسى جديد مع طرح الثورات الجغرافية جانباً فوق وقف تراكيب جديدة وتبدل مظهر الاستشراق. كل العقد الذاتية والتناقض وعدم الاستقرار أو التزعزع ووضع البنى الاستطرادية (منتقلة من موضوع إلى آخر)• حسب جدل فوكو الذى يكون دائماً فعّال ومتقطع / غير مستقر لا يتبدل ساكن أو مُوحّد استخدم سعيد هذا النقاش لتوضيح الدلالات الخاصة بالشرق الذى حتما يتضمن تعدد أوضاعه متغايرة العناصر.

نقاش ادوارد سعيد يستند على وجوب رؤية التفسيرات المتشعبة (المتباعدة) لواقع الشرق التي تكون ضرورية لإدراك عدم التجانس مع العرب أو الهنود. ربما تكون الحالة كذلك. مثول التعددية للعيان لكل من مملكة السياسة الجمالية والقيمة.

وفى مجال المعرفة الإنسانية تطلّب الأمر سؤالا فى الفلسفة الأحادية والمذهب الذى يتشكّل منه كل الحقائق والمعرفة كأشكال معقولة منطقية متجانسة وهناك اتحاد نهائى (وحدة أخيرة) بين النهايات الإنسانية وجه ذلك الانتباه لضرورة إيجاد قانون جديد لكتابة التاريخ ليس فقط بإعادة صياغة التاريخ ؛ لكن أيضاً الأحداث السيكولوجية للنصوص الغربية بطريقة تشمل كل مناطق السياسة الثقافية السرّية التي ربما تأتى على السطح، والأعراف الواقعية للأدب خاصة (الواقعية الأدبية) يكون مشكوك بها. إنهاء القراءات البينية للاوبرا والرواية تأتى متوازية مع النصوص الثانوية

Sub-text المخفية فى البيانات التاريخية والميل تجاه المادة غير التاريخية التي لا يمكن لسلطة أن تختفى وراءها أو تخضع لمثل اقتناص الجهود هذا.

فى مراكز النفوذ عبر مناهج الهيمنة المنتظمة. يرد بعدوانية الأسلوب الجانح إلى التعميم الشديد المُربك ضد التاريخ. فيزداد المدى المُتاح للتفسيرات باستمرار فى فرضاالايديولوجيا الفاشية وراء الفئات الإنسانية للمساواة، والأمر وبتلك الوسيلة تقدم سياسة المنطقة الثقافية ما بعد الاستعمارية وتحليل الخطاب الاستعمارى الجدير بالاحترام النظرى من وجهة نظر الهيمنة بالطبع.

بعض النقاد الاسلاميين المتعصبين أو الهندوس المتنوعين لجأوا -على أية حال- لفكرة التجانس وأقرت الهوية الظاهرة جدا بوساطة الاستشراق. جزئياً يستند ادوارد سعيد على نموذج المستشرقين الذين يعملون على فرضية أن تلك التواريخ المحلية / الوطنية أصيلة وحقيقية. اى نقد لآرائهم يؤدى إلى الفتاوى لأن تشكل مثل هذه التفسيرات تهديد نصوصهم المقدسة أو تديم الشكوك حول الترجمة أو نقل الأحداث الحقيقية أو الدين.

ولا يسبب ذلك مفاجأة بما يكفر فكرة المركزية (خاصة كلام وفكرالسياسة) أو القصص الأصلية الرئيسية التي تعرض للخطر جماعة كل من المسلمون المؤمنون والمستشرقون الأوفياء ؟ يعارض سعيد بعنف كلا الوضعين بموضوعية لأن "مثل هذه المقترحات

تمثل فعالية ديناميـة متغايرة وحقائق إنسانية معقـدة بغير وجهة نظر جوهرية بشكل غير نقدى.

ساند ادوارد سعيد أيضاً الفكرة القـائلة "الشرق حقيقة أبدية" وذلك نسبة إلى الجوهر الغربى الثابـت. التاريخ أيضاً يعتبر دينامى يحمل فاعلية طبيعية جدا ومراوحة ولذلك يجب أن يدرس حسب رد فعل (مـواجهـة-احتـجاج)الاستـشراق فى أية منحـة تراصت (اصطفت) بالهيمنة العسكرية (بغرض نهائى) بهدف ينتهى بتأسيس الامبراطورية.

ما الخطأ فى الاستشراق؟!

ثمة بعض الطرائق الإشكالية ضمن فرضيات ادوارد سعيد حول الاستشراق. حيث الدراسة المنتظمة والموقف الموحّد للشرق يكون فردياً (عمودياً) ويبعد مع سحق الفرد التضاربات والتنويعات الغربية للمستشرقين، كما هو ممارس من قِبل الانجليز والفرنسيين والاسبان والبرتغال علاوة على ذلك، إجمالاً تسلط الخطاب الغربى مرفوضاً كحقيقة موثوق بها، وحسب تلك الفرضية الضمنية هناك تجسيداً حقيقياً. الآن هناك محاولات لتصوير فكرة الثقافات الوطنية الراسخة التي تدور خارج الاستشرقات وعكسها.

بينما يضع دينيس بورتو فكرة الاستشراق فى شكل واحد أو آخر فيما لدينا، لكن فى كل ما نستطيع نحن امتلاكه على الإطلاق. النقاد -أيضاً- يدّعون أن تلك المناظرة فى الاستشراق متناقضة القدرة التي ناقشت و أيّدت فيما بعد بأنها يجب أن تلازم النقاد.

ربما يدعم ذلك -أيضاً- أن سعيد ناقداً للسائد، لكنه يقر ولاءه لدروس النصوص الغربية العظيمة. القضية المهمة التي ينبغى الاحتفاظ بها فى الذهن هى الدور الفردى الذى ليس فقط يصف نفسه مع الطبقة العاملة الظاهرة ضد قرار الهيمنة "، لكن ذلك - أيضاً- بقدر كبير فى إذكاء الهيمنة باستمرار. الثقافة الدائمة التي

تخــرج عن مثل هؤلاء المثــقفين العــضويين، وتحــفظ تراث ماثــيو ارنولد لابد بالضرورة أن تؤيد بعض الأعمال الشرعية

فجأة يقدم ادوارد سعيد دليلاً بيناً على محاباة القانون الغربية التي تتضمن سويفت واوستن ودكنز وييــتس وكونراد بالإضافة إلى آخرين. ويشكك سعــيد فى أن المؤسسات الثقــافية يمكن أن يكون لديها منتج أدبى مشرقاً حتى الآن وفى الوقت نفسه يؤيدهم وتلك هى النقطة الثاقبــة التي التقطها إعجاز أحمــد وهاجم ادوارد سعيد فيها من ناحية.

كان لادوارد ســعيد مــلاحظات حول تواطؤ معظم البــشر مع المشروع الاســتعمارى ضــد الهامشــيين لذا لّمح سعيد للاتجــاه نحو التعــاطف والتلاحم والــترسيخ مــعهم بما يصــنفه عبــر الملاحظات الإنسانية ضمن المنادين بحقوق الاقليات خاصة الثقافية والمشردين. يقول أمحمد: ما يعدّ رائعاً التأكيد الاذئع على القيم الإنسانية تلك الإنسانيــة التي تسجل دائماً بوصــفها تاريخــاً رافض للواقع بشكل صريح". ومجــموعة الرفض والجمــوع الإنسانية الغربــية وكذلك الرفض الـ"نيتاشوى" -نسبة إلى نيتــسة- يمثل نظرية فادحة لعالمية الناقد الذى انشغل بنقاش كلــتا الطبيعتين السياســة والأدبية خاصة أولئك الذين يتــعلقــون بالشــرق الأوسط، لكنه -فى الآن نفــســه يذهب إلى اكتشــاف التشويهات التي تعــتور بناذ الشرق الأوسط، ذلك أن تكوين وبناء صروح الشرق مشكوك فيها.

تقـديرات سعـيد دائمـاً للتاريـخ على أنه متـواطئ مع النظام الاستعماري، المعنى والقـيم بما يؤدي إلى طريق الاعتراضات على كل ما يتضاد مع تلك الممارسات الهيمنوية. ولو حسبنا أن الهيمنة عامل مهم وسائد ضـمن العلاقة الاجتماعيـة فهناك دائماً الشراذم والهدّامين الذين يبـدون مقاومـة ولو ظاهرية إلى النظم السياسـية والاجتماعية العالمية.

الثقافة والامبريالية

بينمـا زود الاسـتشـراق القـارئ بنقـد الـعلوم والأفـعـال الامبراطورية، إلا أن الثقافة والامبريالية ركزت على القراءة وتفسير الشكل الفنى الغربى ضمن ما يُعرف بالعلاقـات الثقافية المتداخلة. فحص سعـيد العلاقة بين الامبرياليـة المهيمنة والثقافـة خاصة إبان الاستعمـار الفرنسى والبريطانى فى القرن التاسع عـشر والذى عُدّ تاريخياً من مـغامرات البشريـة المهمة، حيث تم -أيضاً- اجـتياح المسارب الثقافـية المختلفة من الرواية والأوبرا والشعـر حتى أجهزة الإعلام كما وضح فـى دراسة "الاستشراق" وعليه تصبـح الثقافة فن المؤسـسات الامـبراطورية التي تهندس تركـيب المشاعـر وتمنح المستعمر شعرية كبرى للهيمنة.

فى دراسة ادوارد سـعيد "الثـقافة والامبـريالية" دقق سعـيد النظرات فى السـمة الحـقيـقيـة للفن والتى وظّفت بشكل حـاسم لاستبـقاء واستمرار الأنظمـة الإمبراطورية على اعتـبار إيجاد رؤية تفسر كيف تستعمل الثقافة كبنية فعّالة لتأسيس الامبراطورية.

ووجهة النظر الموضـحة لمفهوم الإمبراطورية تنحـصر عادة فى الرواية الانجليزية التي -طبقاً لها- تجسّد ركيزة أساسية فى التشكيل الثقـافى. فقد استـفاد البريطانيون من الرواية وفكرة الامـبراطورية المهيمـنة الموسعة، خاصة أنهـا منتج القرن التاسع عـشر، أى حال تواجد المجـتمع البـرجوازى، وقد منحت الروايـة صورة مصـدّقة

مؤكـدة دائماً للسياسـة الأجنبية البـريطانية. خذ على سبـيل المثال رواية "روضة مـانسفيلد" لجين أوستن، حـيث يحللها سعـيد من ناحية نقص اهـتمام أوستن بالتاريخ الاستـعمارى أو مخـاوفها من التعـمق والمبالغة فى القـضايا المحليـة، يضع سعيـد الرواية ضمن نطاق أسلوبى الهيمنة والعبودية الخـاصة. السيد توماس بيرترام فى منتزه مانسفيلد للاعتناء بمشـروعه الزراعى كضرورة للمحافظة على النظام وبالتـالى التـحكـم فى أسلوب حـيـاة المواطن الأصلى فى المكان. وعليـه يتاجـر فى العبيـد ويوظفهـم لصالحه أو بما يـحقق هيمنة الثـقافة الاسـتعمـارية على البيئـة التي يجتاحـها ولعى كل سمات الحياة.

هكذا يرجع إلى كل محتوى الرواية من منظور استعمارى كى يحلل النصوص الثـانوية التي تؤول جميعـاً إلى جنوح كل مواقف الرواية نحـو الامبـريالية. ادوارد سـعيـد فى تحليله لأفكار النص تجاهل فى أغلب الأحيان بعض العناصر الدفينة فى الرواية، وذلك بقصـد وسم جين أوستن بالوكيل البـريطانى للامبـريالية أو هدف سعـيد إلى أن يعرّى دورها فى عـرض عنف الحكم الاستعـمارى البريطانى ومن ثم أراد أن يـبرز الطبيـعة العامة لـلرواية التي تأخذ الأسلوب الامبريالى كـمُسلّمة طبيعية حـتمية ضمن سيـاق الثقافة البريطانية. هناك بالطبع قدر من الاستمتاع بقصة أوستن لكنه غاب عن سـعيد المـهتم بشكل أسـاسى بجنى الثمـار الامبـراطورية فى النص.

بنفس الطريقة حلل ادوارد سـعيد أوبرا عايدة لفـردى، حيث إنه عمل فنى قائم على الامـبريالية التي تدعم الهيمنة عـبر ترسيخ رأى عام يؤكـد على وجود الحضريين بـوصفهم مركـزاً إلى جانب أقليـات العالم الثـالث المهمـشـة. وشبكة الانتـسابات للمـذهب الامبـراطورى تصبح ظاهرة جلية خلال قـراءة متفحـصة للاوبرا، وهو ما اكتشفه سعيد عندما ربط بين مادة بحثه والنزاع فى السياسة الخارجية لإيطاليا وفرنسا وبريطانيا. مـصر كانت مستعمَرة من قِبل بريطانيا وكذلك كانت ركيزة لغزو عسكرى كبير يصل لحد أثيوبيا، كما كـان الإيطاليون والفرنسيون طـموحاتهم الاستعـمارية أيضاً. تحـمل الأوبرا ذلك المعنى الضمنـى أيضاً وبذلك تكون السـياسـة البريطانية فى مصر متساوية مع أحداث الأوبرا الإيطالية كما يجادل سعـيد مقـرراً أن الشكل الإمبراطورى قـد تشكّل خصيـصاً لإثارة إعجـاب الجمهـور الأوروبى بشكل خاص، والمثـال فى هذا الأمر شديد الوضوح ويتـمثل فى كيف تتحـد الثقافة مع السـياسة لمنح إحساس المركزية للفنون والأفكار الأوروبية، وما هو رائع كيف أن هذه الأشكال الثقافيـة تفوز بالرضا والاستحسـان الاجتماعى دون الكشف عن مغـزاها الامبراطورى الحقـيقى ,وهذا مثـال جيد دال على كيفية عمل وفاعلية الهيمنة فى رواية "كيم"[1] لرديارد كيلنج مثال ينطبق على هذه الحالة التي تعتبر النص ليس فقط طريقة لفهم

١- ظهرت عام ١٩٠١ بعـد اثنتى عشرة سنة من مغادرة كـيلنج للهند وهى مسقط رأسه والبلاد التى سيظل اسمه مرتبطاً بها دائماً. راجع الثقافة والامبريالية ص ١٩٦.

أسلوب الحياة الهندية، لكنه يقـدم سبباً جوهرياً لهيمنة الاسـتعمار على معظم الأرض. بريطانـيا فى الرواية تساند العـدالة والسيطرة التي لا غنى عنهـا فى البلاد البـربرية مثل الهند. والـهند مُسـيَّرة قصصياً لتحقيق السيادة البـريطانية التي تقرر من ثم الحاجة الحتمية لتحديث تلك الأنحاء.

تلك طريقـة سعـيـد فى عرض وسـيلة الهيـمنة على العـالم اجتماعياً، وجعل ذلك- أكاديمياً- مقبولاً، حيث يساعد على تلك الفكرة وجود الثقافة الشعبية، القصة، الصورة، الأوبرا. كل تلك تمثل أموراً متشابهة لأحداث مختلفة يمكن أن تقرأ خلال استراتيجية الهيمنة.

يقدم سعيد نقداً ودراسة للتنافر والتواتر الذى يمكن أن يقع بين الجماليات عبر النظرات الثقافية والتاريخية، كذلك إنتاج واستهلاك المادة المكتـوبة يتضمن -اجـتمـاعياً- احـتواء ايديولوجـيا مـحددة لمصلحة قيـمة معينة، وهذا مـا يحيي دراسة علم النص، فالثـقافة والامبـريالية مهمـة لعالمية تواجـد هذا العالم والإشارات العلمـية تعطى للقـارئ النص المبحوث بـشكل جيد ومن ثم إعـادة تكوين التـاريخ بشكل خلاّق خـاصـة فى القرنين الأخـيـرين المجسـدين للامـبرياليـة الأوروبية امتـداداً من النزعـات الخيالـية الماضيـة إلى الأحداث المعاصرة أى ما بعد الاستـعمار أو سيناريو ما بعد الحداثة الذى يمكن أن يُدعى بالفتـرة الفاصلةمن الكفاح القومـى المعاصر. وهذه النظرة العامة للتاريخ تعمل ولا تهمل الانتشار المستمر للواقع المعيش.

الميول فى العالم الثالث

تكافح القصص المعارضة لفكرة العالمية من أجل أن يذاع صيتها، وزعم المقاومة داخل أطروحة ادوارد سعيد عن الثقافة وعلاقتها بالامبريالية والتناقض الذى يمكن للمرء اكتشافه هنا ينجم عن علاقته الغامضة مع مصطلح ما بعد الحداثة الذى يرفض تجميل القصص أو الأحداث ومع ذلك تلقى رؤية ما بعد الحداثة تقريعاً كبيراً خاصة مع تناقضات وجود العلمانية والواقع، ومن ثم يذهب المرء إلى البيت بالسيارة بعد أن يكون قد علم منهجه المتواتر الذى يؤكد على ازدواجيته والتعددية التي لم تحل نظراً لوجود عدّة تناقضات حياتية، لكن التأكيد على أن نؤيد نظرة سعيد التاريخية شريطة وجود واقع ما بعد الحداثة، ولا ينكر ذلك.

كان على ادوارد سعيد ألا يحصر نفسه فى تحليل كتابات غربية وحيدة دون غيرها بهدف ترسيخ فكرة الهيمنة الغربية، حيث الاستعمال الأجنبى للغة يعيد الكاتب إلى فكرة الاستعمار وإعادة تشكيل الحقيقة الثقافية التي تظهر فى تأويل الكلمات والحوار الغريب داخل النص، أكثر من مجرد كونه حواراً عادياً، فهناك فى تلك النصوص أشياء أكثر من مجرد الظاهر الذى يحكم به بعض النقاد نزوعاً إلى اتهام كتابها بميولهم لترسيخ فكرة الاستعمارية.

ومن هنا ينبغى إعادة وضع النصوص فى سياقها التاريخي اتفاقاً مع منظور ذلك التاريخ ومثل هذا المشروع يستهدف تحسين

هوية تلك النصوص وعـدم ربطها بالضرورة بثقافـة الامبراطورية، خاصة وأن أوروبـا قد واجهت المعاييـر المركزية عبر إيجـاد العُملة الموحّدة "اليورو" كى تحفظ هويتها وتلغى عصر الاستعمار وتطويه فى عالم الـنسيان الحـضارى. وهو نوع من الحـاجة إلى المقـاومة الثقافية، وعلى النقاد لنظرية ما بعد الاستعمار أن يتبعوا أسلافهم، وان يستدعى الناقد الرواية المحلية لتاريخ بلاده قبل وجود المستمِر.

يشعر ادوارد سعيد أن الاسـتشراق نوعاً من المقاومة وهى أبلغ رد على الحركة الهائلة لتصفية الاستعمار عبر العالم الثالث. وذلك بسـبب علو الأصوات المهـمة التي قـد تشكّل دون انقطاع وتعـيد تشكيل بعض المعانـى مثل القوة والمعرفـة كى تستمـر تلك المعانى على قيد الحياة.

كتابات تشينو اتشيبى ونيجوجى واسينجو وغيرهما من روائي إفريـقيـا الأوائل على سبـيل المثال، فى نص "الأشـياء تتـداعى" لاتشـيبى يعكس الكاتب صـورة مجـتمع "اجـبو" فى نيـجيـريا والعادات المتـأصلة فيـه. فالنص الأدبى كـأنه ليس تمريـن علـى فضح الواقع السياسى خاصة مـن ناحية الخطاب، بل إن جماليات النص تنبع مـن خارجـه (الواقـع المحـيط به)، ومن خـارج القلق السيـاسى أيضاً لتؤكـد على الوجود عـبر وصف الواقع والتقـاليد الشفهية ضد غير العادلين وكذلك ضـد التأثير المهيمن لثقافة الآخر (المستمِر).

تلقى تلك الروايات يختلف طبقًا لميـول النقد الأدبى التقليدى الغـربى حسـب تقصّى النزاعـات والتـواصل ودرجـة الجفـاء بين الثقافـتين المنقول منها والمنقول إليـها، بالطريقة نفسـها نرى الدليل على فتنـة اللغة البنغاليـة فى القرن التـاسع عشر حـيث الروائيين والشـعـراء الذين ظهـروا فى تـلك المرحلة، وقـد كـان لديهم أيديولوجـيا (اتجاه أيـديولوجى) وخلاف مـعرفى خاص بـالوجود الاستـعمـاري، حتى حين سـادت الاستراتيـجيـات الهدّامـة كان المؤرخون القوميون - غير المعدودين - يواصلون الكتابة من منظور غربى كليّة مـورطين أنفسهم في الايمان بالكتابة بطـريقة التى كُتب بها عن التركيب الاستعماري السالف عليهم .

جادل فرانز فانون بشكل صحـيح حول فكرة تحوّل البرجوازية القومية إلى أشكال من التميز العنصرى؛ فضلاً عن الانفصالية التى تجسد الهيمنة الاستعمارية السـالفة التى تُستبدل بمجموعة - أحادية - عرقـية مهيـمنة تديم قوة تلك المجـموعة عبـر تراث المستعـمر العصى على التحليل خاصة إذا وجهت المصـالح الاستعمارية تجاه إهمـال شؤون البـرجوازيات الصـغيـرة، لكن فى أغلب الأحيـان تحصل الوجهات الاستعمارية على غاياتها عبر المبالغة فى المعارضة الكاذبة للغرب. اسـتعمل التـركيز الأساسى على الكتـابات حول الاستشراق بحـذر من الأجانب خاصة من جانب القومـية الموجهة للهيمنة على العرب والعالم الهندوسى المتـعلق بالأصولية الجامدة، ومن ثم اكـتـشف إداورد سـعـيـد بل أكد عـلى أن فكرة خطاب

الاستشراق ليس أكثر من تاريخ طويل من النقاشات والصراع على المصالح، وهو فى الحقيقة ظن أنه بذلك يبرز الممارسات الثقافية المتعددة التي تمر عبر الجانب التاريخى لخطاب الاستشراق .

أما شروط الاستشراق فهى قائمة على ضرب أى مشروع شوفينى أو مشروع يتجه نحو العالمية ويكون أكثر إقناعًا خلال فهم تاريخه والتعبير عنه. هناك استراتيجيات متعارضة القوة يستند إليها عمل إدوارد سعيد بهدف قراءة الثقافة والأدب خارج المخاوف المنحصرة فى الفضاء التاريخى والأفكار العرقية وجغرافيا التواترات العالمية القائمة التى تحتج على جوهرية أو عالمية الحوار السائد مع الغرب، بينما تكتب جين براكش عن كتابات خطاب ما بعد الكولونيالية أنها : «تعيد ترجمة وجود الهوية ضد عملية التعريف المتناقض بما يفتح المجال لنظريات مركبة متشابكة، إضافة إلى إعادة ترتيبها وفق تحديد موقع الخصومات التاريخية في العملية المتسارعة للرواية ومن ثم إعادة استظهارها» .

بين التاريخ والحقيقة

يجب أن تؤخذ ظاهرة الاستشراق كرمز صغير لكنه متكامل دال على الغرب ولا يجوز لقارئ إدوارد سعيد أن يضع فى عين الاعتبار أطروحاته - خاصة تغطية الإسلام - كنوع من أنواع الدعم السياسى الإسلامى أو حتى مساندة للأصولية الإسلامية، خاصة وقد اتهم إدوارد سعيد بالجنوح إلى ذلك الدعم. يستند أستياء النقاد اليمنيين ضد سعيد على ظلم رسالة الاستشراق حيث يعتبرونها مستندة على المعارضة الثنائية لوجود معسكران متنافسان هما الغرب القوى مقابل الشرق الضعيف. على أن ادعاء إدوارد يجب أن يوازن بين تطوير كل ثقافة (منقول منها - منقول إليها) ضد وجود الذات الأخرى المتنافسة والمختلفة عن غيرها. يقول سعيد : «بناء الهوية يتضمن وجود النظراء (الاعتراف بالآخرين) الذي تخضع حقيقته دائمًا للتفسير المستمر وإعادة إنتاج وشرح اختلافاتهم عنا» وهو - أى سعيد - بذلك يتخذ موقعًا ماركسيًا قويًا يفترض أن فكرة الهوية قائمة على التغاير باستمرار والتى لم تكن نهائيًا نافذة إلى محل ما هو سياسى وثقافى وتاريخى فى العمليات القائمة بين الأنا والاخر.

فى رأينا أن تدوين التاريخ بين طرفي نقيض (الغرب - الشرق .. مثلاً) محدد بتواجد وتراتب القوة أو انعدامها أقصد بالطبع قوة السلطة والتمسك بمبادئها دائمًا، بيد أن هذه الفكرة تواجه خطراً

واحدًا حيث كل أنواع التاريخ تهـمش الجنس أو الجنس الآخر كما هو مُشار من قبل جيرترود هيميلفارب الذى قال : «لم يكن التاريخ مجسدًا بدقة لأن الطرفين (الشرق والغرب) لم يكن بينهما تاريخ مشترك لأن التاريخ العام - إذا جاز لنا التعبير - لن ينكر أن الأرض مشاعًا عامًا للجميع، والإنسانية صفة لكل الناس مهما كانت جنسيتهم أو صنوفهم أو دياناتهم وما شابه ذلك. إذا لم ينبسط التاريخ تجاه هذه المسلمات فسيفقد التماسك والمصداقية والاستمرارية. فى الحقيقة سيفقد كل المعانى، وبعد ذلك إذا كانت الحقيقة نسبية؛ لا حقيقة الحدث العُنصرى أو الحديث المضاد لكل شرعية على حد سواء ؟ ليس عدم المساواة بين الأجناس خاصة المختلفة والمتعددة حرية بالرصد فى النظرية النقدية لما بعد الحداثة وعدم تحديد أية مهمة حقيقية ترنو إليها الكتابات المعاصرة. كيف نجيب عن أسئلة ما بعد الحداثة ؟ هناك بالطبع مشكلة مترامية / واسعة الانتشار هى الانكار اللانهائى لمعنى الحداثة أصلاً؛ ما إن تبدأ فردية وتنتشر فى السياقات فيما حولها إلا وتقريبًا تنهار. على أية حال وجهات النظر ما بعد الحداثية تعتمد على التاريخ الإنكارى لكل ما قبلها وعلى ذلك تفتقد الجدال الرئيسى معه .

ولا أحد يرفض أبدًا أن يكون التاريخ مكتوبًا حتى إذا أهملت نظرية ما بعد الحداثة الحجج المنطقية الرامية إلى ذلك عبر التحقق والبحث الأرشيفى. لكن ذلك لا ضرر منه لأن كل التفسيرات الرامية إلى تلك النقطة صحيحة .

وتؤكد نظرية مـا بعد الحداثة أنه ليس هناك - مطلقًـا - معني حقيقى واحد. وقد جـادل فى ذلك الكثير من المؤرخين التقليديين عبر اعتناق المبدأ الدوجمائى كحقـيقة خالدة لا مراء فيها، وفحوى نظرية ما بعـد الحداثة - حسب مـا يعتقـدونه - إنها مجـرد تلفيق ثقافى، وعلى ذلك لم يمنحوا أنفسهم الفـرصة لقراءة التاريخ كأنه قصـة إبداعية شـائقة لا يُفتـرض صدقهـا عامة. أو تُقـدّر حسب المنظور للماضى بصورة صحيحة .

على ما يبدو ينبغى أن يـكون المؤرخين ذوى نظرة أكثر إبداعًا بما ينعكس على انضباطهم فى رصد الدور المبدع فى بناء التاريخ - خـاصة القـصصى - . ولأنه لم يحـدث ذلك - أي فقـد النظرة الإبداعية من عين المؤرخ - فقد وجهت منهم نظرة مُعتلة جدًا إلى الكتـابات مـا بعد الحـداثيـة. وهناك مـشكلة أخرى تـتمـثل فى الإدعاءات الكبـيرة الناتجة عن تلقى نظرية المعـرفة الغربية والتـأثير المتزايد للثقافات الأخرى على التـفكير الأوروبى خاصة قبل عصر النهضة، ويثبت ذلك مـن قبل عبارات مضادة أنتجـها الغرب مثل «ما بعـد الاستعـمار» «ما بعـد الحداثة» «ما بعـد البنائية». وهدف الرؤى العامة تجاه تلك العبارات هو فـرض مقولة الهيمنة وتدويرها على كل الثقافات، خاصة إذا كـانت هناك رسالة نصيّة تمنع تسرب كل مـا هو غـيـر أوروبى إلى الوجـود القـار فى النظام الأوروبى الصاعد.

وعلى الرغم من أن مثل هذا الأسلوب فى الرؤية العالمية الجديدة يشكل تحريرًا للممارسات السياسية خاصة فيما يتعلق بالحديث عن القصة الرئيسية لهدف المستعمر؛ فإن هذه الرؤى العالمية الجديدة استعملت بوساطة المترجمين كوسائل فطنة للسيطرة على الآخرين، ومن ثم ركن الأدب المحلى وترهينه بمثل هذه السيطرة، مما دفع إلى وجود خلاف فعلى بين الـ «نفس» والـ «آخر» بما أحدث بلبلة وأزمة عامة وتناقض مهم لا يمكن له أن يُهمل مُطلقًا نظام الامبراطور وقبضة ملكيته الخاصة.

تنطوى سياسة ما بعد الاستعمار بشكل تكاملى ضمن ما بعد الحداثة، بما يجعل ممارسة كتابة التاريخ يجب أن تتم ضمن «تعالى النص» أو ما عُرفَ بـ «ما بعد البنيوية» عبر التصوير الأممي الواقعي، تباين الموضوعات، الجنس، التفاعل بين الكتابة والسُلطة .

سعيد ناقد القرن

تبـاينت كاتبـات إدوارد سعـيـد حول الســياســة والموسيـقى الكلاسيكية الغربية بالإضـافة إلى التاريخ والأدب، وكانت كتاباته دالة وفياضة فى معناها تعبر عن النقد الثقافى الشمولى مثل رايموند وليامز كمـا يظهر فى كتابه «العالم والنص والناقـد» الذى استعمل فيه طريقة فى الكتابة تتسم بالثبات الذى يتسق مع التوظيف النقدى لأفكاره. ثم يمضى فى شرح هذه الأفكار بإسـهاب فى مجـموعة من المفاهـيم الإجماليـة التى تؤكد سـخطه على القوالب الـنقدية الجاهزة ونفـاد صبـره من رسوخ فكرة المؤسســة فضـلاً عن رؤيته النقـدية لفكرة المصالـح الاستـعمـارية الخاصـة. كذلك العـادات الأرثوذكسـية التى تسيطر على العـقل. ولم يخل سعيد نفـسه من نقده الذاتى، حيث كـان أكثر خلافه مع نفسـه فى الوقت الحاضر يبدأ بمنعها من التحـول إلى العقيدة المنظمة المُؤمَنة على كل شىء. وقد أراد إدوارد سعـيد أن يُعارض كل أشكال الاستبـداد والهيمنة والإساءة لكل مـنتج عقلى حـتى لو كان من عرق بـشرى أدنى بما ينتج معرفة غير قسرية لمصلحة الإنسانية وإحساسها المتأصل بالحرية.

يؤكـد إدوارد سـعـــيـد فى «العـالم والنص والـناقـد» على المسؤوليات الرئيسية للناقد وأولها معارضة القوة المهيمنة للتشكيلات والتكتلات الثقافية القائمة والمستمرة، حيث الأهمية القصوى للنقد الثقافى تكـمن فى رفضه لأن يكون مجامـلاً لكل خطاب حتى لو

كان طبيعيًا، وهدف إداورد سعيد الحقيقى كامن فى الكفاح السياسى العنيف ضد مبدأ الهيمنة .

تصلح نصوص إداورد سعيد لكل زمان وأوان ومكان، هكذا تكمن أهمية طبيعة الاتصال بين النص والحقيقة السياسية التى تُنتج فيه وأراد توصيلها، وعلى ذلك يكتب إداورد سعيد ليؤكد على الربط بين النقد والحياة، وذلك نظرًا لكونه منفيًاَ فلسطينيًا غير محدد المكان (الوطن) سوى كونه فى الولايات المتحدة دائمًا منشغلاً بمحاربة الموقف السياسى الذى يشكل - لا محالة - الخلفية التى تجعله يؤمن بتطبيق فكره غير المنحاز لطائفة أو أشخاص .

فإداورد سعيد يرفض أن يصبح ثابت ومرتكن إلى ضرورة تعبيد الماضى، الذاكرة، الخيال، القصة وتفاعلها واندماجها فى الأسطورة خاصة بشكل مستمر فى التاريخ والثقافة والقوة، وعلى ذلك أحدثت كتابات سعيد وتجاربه قدرًا من الاستمرارية والتأثير . . خاصة إذا سلّمنا أن الاستمرارية والاختلاف هما نمط صدق التاريخ، وعلى ذلك يرفض إداورد سعيد تشكيل الثقافات التى يصنعها الآخر، وكذلك يرفض تذلل وخضوع أية مشكلات أو مواضيع للأنظمة - الاستبدادية بالطبع - .

ظهر ذلك فى أطروحته للدكتوراه التى كانت حول جوزيف كونراد التى نالها من جامعة هارفارد، بعد ذلك استخدم نفس الأطروحة فى كتابه «بدايات» لكنه عندئذٍ طعّمها بميل سياسى، ثم

النهج نفسه اتبعه فى عمله حول استراتيجيات المستشرق. وبعد إكماله لعمله المؤثر الاستشراق بدأ سعيد فى كتابة تاريخ نزاع الشرق الأوسط عبر أهم مسألة فى ذلك النزاع، وهى مسألة فلسطين، ثم ظهر كتاب تغطية الإسلام، ويشير موضوعا هذان الكتابان بوضوح إلى موقف سعيد الايديولوجي الذى مكنه من ربط التاريخ ليس بالثقافة فحسب، بل بالسياسة أيضًا. وتظهر نفس مركزية جداله النقدى المؤيد للتدخل والتعدى الذى يمارسه الآخر فى كل شىء، ومن ثم يظهر عبر رؤية سعيد أن للكتابة مسؤوليات أهمها فضح زيف الخطابات السياسية التى تخفى تحت سطح الكلمات وتستتر خلف ما يعرف بجدول الأعمال الذى يقرره السياسيون .

وفى رأينا أن موقف سعيد هذا يمكن أن ينجز خلال إعادة كتابة التاريخ من جانب «ما بعد البنوية» وكذلك فى الاستشراق الذى هو إعادة حكى القصة عبر السيطرة الثقافية على المشرق، وهنا يكمن التزام الناقد الثقافى الواعي والمؤرخ الذى يتدخل دائمًا فى عرض تطبيقى لنظرية النقد وإفساح مجال العمل لها عبر الممارسة الفعلية. بمعنى آخر يحدث ذلك عندما يجتهد الناقد الثقافى أو المؤرخ كى يطرح ما بداخلها نظريًا للممارسة العملية العادلة التى تحكم على الواقع بضمير خالٍ من الميول. بيد أن نظرية إدوارد سعيد لا تهمل حقائق السلطة والقوة المهيمنة على العالم من قطب واحد أو من وجهة رأسمالية مُطلقة؛ ومن هنا ينبغى أن

يكون هناك آليات من المقاومة والضدّية التى يجب أن تكون حاضرة بقوة فى القلب .

يشعر إدوارد سعيد بأن للفعل الثقافى والحضارى الأهمية السامية المستمرة، ومن منطلق هذا المبدأ تشعبت رؤى إدوارد سعيد الأكاديمية، لكنه بقى مُعاديًا بشكل جوهرى وجذرى وشكاك بشأن النظرة الصمنية للإسلام أو للمشرق. لكن مثل هذه الحقيقة الجوهرية ليس لها سند مستقر فى الواقع ككل بناء أيديولوجى للتاريخ الإنسانى مرتبط بتطوير وجهة نظره منذ بوادر الكفاح الذى مورس للسيطرة على الأرض التى كانت من أهم غايات ذلك التاريخ، فالمهمة الأساسية لعالم الناقد ليس الكفاح فى إتجاه واحد لكن إلى غايات متعددة على الرغم من القهر الكبير الذى يمكن أن يُمارس عليه، فالناقد الأدبى هو وحده الذى يحدد موقعه بشكل فعلى ضمن السياق الاجتماعى، ثم يحاول التحرك سعيًا وراء استجواب الأصول الثابتة للتاريخ الواقعى الجامد دائمًا .

لكن إذا أردنا الإنصاف نقرر أن إدوارد سعيد ليس جامدًا مثل نقاد ما بعد البنيوية الذين نبذوا كل التواريخ، ففى بدايات كان إدوارد سعيد يجادل بشدة تلك النصوص الأدبية التى تؤصل للبدايات، ومن ثم تمترس سعيد لذلك ببعض النوايا الخرسانية. على الرغم من الضغوط الاجتماعية التى أحاطت به فقد تملك كل المكونات التى فرضت عليه الالتزام. حيث الموقف الأيديولوجى النشط الذى يؤمن الناقد به ويقول فيه ما يفعله - خاصة مشكلة

الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية التى كتب كثيرًا جدًا حولها .

يرفض إداورد سعيد دائمًا النظرة الأصولية الضيقة، وكذلك كل ما هو هو إثنى فى المعتقدات، فكل بدايات يجب أن يكون لها أصول حتى لا تُرفض كلية. ويجادل سعيد - أيضًا - فى كل كتاباته بوصفه علمانيًا، لذا كان التفسير المتمرد الذى كان يعتنقه فى النقد ضد الهيمنة والفلسفة الواقعية التى كان التقليديون يعتبرونها معقل الإنسانية ومناط تحريرها، على الرغم من أن الباحث فى النظرية النقدية يجد أنها تستغنى عن أية مسؤولية للتشكيل النهائى للثقافات أو للنص نفسه.

يبدأ إداورد سعيد تنظيراته عبر الرؤية الهادئة للنص فى سياق ما يُعرف بالتناص، ثم يبدأ فى عرض وإزاحة فضاء التاريخ غبر الهوس بوجود التناص فى النظرية الأدبية المعاصرة، وقد يتناقض ذلك مع النقد العلمانى الذى يرفض كل أرثوذكسية. إن النص إنتاج ثقافى تتعلق به كل الأنظمة الخارجة عنه والداخلة إليه عبر قوة تمثله. كيف تكونون أحرارًا فى عالم يتقدم كل لحظة ومرهونًا باللحظة التاريخية فى كل وقت؟ إن النص الذى قدّمه سعيد فى العالم والنص والناقد يتميز بالاتساق بقدر كبير مع النص الحقيقى الموجود فى العالم خارجه، وعند سعيد ينطبق ذلك على كتاباته حول الاستشراق بالإضافة إلى وجهات نظره التى أراد أن ينشرها عن القضية الفلسطينية حيث وضع فى ذلك السياق كل النصوص الحيوية التى تعبر وتساعد على فهم الحرمان والظلم الذى يعم

العالم من جراء سياسة الرأسمالية، هكذا يوجه سعيد الوعى تجاه العلمانيين الذين يقدمون انطباعًا حادًا عن الواقع الاجتماعي والسياسى والقيم الإنسانية اللازمة لإنتاج المعرفة ونشر النصوص التى ترسخ ذلك وفى الختام يدعو سعيد لفكرة المقاومة بالنظرية مثل قوله بأن الناقد ينبغى أن يفتح حدقتيه تجاه الحقيقة التاريخية نحو المجتمع، نحو الحاجات والمصالح البشرية لتأكيد أن الطرف الأدنى اجتماعيًا يمكنه أيضًا أن يواجه طغاة الرأسمالية .

إجمالاً على خلاف نقاد ما بعد الحداثة يؤمن إدوارد سعيد بأصول النصوص التى تقرر حقيقة ومادية الإنتاج بالإضافة إلى الأيديولوجيين والظروف التى لها تأثير مباشر فى شكل ومضمون النص. والناقد يجب أن يحدد مكانه ووضعه فى العالم الخارجى بدون التغاضى عن المجاملات والعلاقات العامة، مثل هذا الناقد العلمانى يتحرك فيما بعد الحدود الضيقة التى لا تجسد مهارته الأكاديمية وتبدو كأنها فى قطيعة مع عالم الأحداث أو المجتمعات الخارجية عنه، وبناء التاريخ الحديث إنما جاء بواسطة المثقفين والنقاد والخطو نحو قواعد النقد العملى والأدبى/ اللاسياسى - وعلى ذلك فالنص / والناقد / ومجموعة القراء عامة سيظلون فى علاقة جدلية أبدية .

المصطلحات

الرئيسية

١ - قانون Canon :

تتعدد المناحى التى تستخدم فيها كلمة قانون، فهى ميتافيزيقيا تشير إلى الفعل الإنسانى مصاغًا فى شكل قاعدة ذات سمتين : العموم والالزام، وكل الحالات أو الظواهر تظل خاضعة لها خاصة أن كلمة قانون ذات دلالات متعددة أهمها دلالة الفاعلية والسلطوية التي تُخضع دائمًا البنية الذهنية خاصة إذا كان القانون يعنى تنفيذ وتطبيق فكرة الواجب والوجوب والضرورة التى يتضمنها كل مُعطى قائم على مسألة الصراع كقانون سيار عبر التاريخ .

٢ - ذاتية Subjectivity :

تقييم الأمور أو الظواهر أو الأحداث أو الأشياء أو الأشخاص

تقييمًا متأثرًا بذاتية الباحث وبما تنطوى عليه من ميول واتجاهات وعواطف وتعصب يعميه عن اكتشاف الحقيقة المجردة ورؤيتها بوضوح وهذا بطبيعة الحال يفسد ويشوه تلك الرؤية ويجعلها زائفة، وبالطع الذاتية عكس الموضوعية .

٣ - رأسمالية Capitalism :

هى نمط من إنتاج محدد كما أنها عبارة عن سلسلة من التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية ومن الكيانات الملموسة التى يقوم فهمها على الوصف وتتميز الرأسمالية بوصفها نمط إنتاج يحدث بواسطة القوة الإنتاجية التى تعبئها وتساهم بقوة فى ازدهارها والرأسمالية باعتبارها تشكيلة اقتصادية واجتماعية أى تركيبة ملموسة ومعقدة لعدة أنماط من الإنتاج يكون إحداها مهيمنًا والباقى مهيمنًا عليه .

٤ - هيمنة Hegemony :

هذا المصطلح أحد مصطلحات الماركسية الذى يدور فى فلك المادية التاريخية، حيث يشير إلى التمثيل المثالى لمصالح الطبقة الحاكمة على أنها مصالح عامة (للمجتمع ككل) فالطبيعة التراكمية للأفكار التى تكتسب صفة العمومية لا توسع فحسب من مجال هيمنة الطبقة الحاكمة، ولكنها تؤدى فى الوقت ذاته إلى تعميق الصراع بينها وبين كل طبقة تليها حتى يأتى وقت تظهر فيه طبقة (هى طبقة البروليتاريا) التى تمثل المصلحة العامة الحقيقية، وحسب رأى ماركس كل طبقة حاكمة تمثل بالفعل نطاقًا من المصالح أوسع من سابقتها، وذلك عن طريق فتح قنوات الحراك الاجتماعى إلى طبقة أعلى ومن ثم فإنها تأتى إلى القوة ليس فقط فى نطاق الدعوة المضللة إلى المصلحة الجمعية، ولكنها تأتى أيضًا لأنها تمثل بالفعل نطاقًا أوسع من المصالح. وتعزى إشاعة المصطلح إلى المفكر الشيوعى الأشهر أنطونيو جرامشى الذى كتب أهم نصوصه «كراسات السجن» أيام الحكم الفاشى لموسولينى .

٥ - الحداثة Modernism :

حركة انفصال وتقاطع عن التراث أو الماضى لكن ليس لنبذه وإنما لاحتوائه وتلوينه وإدماجه فى مخاضها المتجدد، ومن ثم فهى اتصال وانفصال، استمرار وقطيعة، استمرار تحويلى لمعطيات الماضى وقطيعة مع الاندماج فيه، وقد مارست الحداثة هذا

الانفصال على نفسها فيما يسمى بـ «ما بعد الحداثة» الذى لا يمثل مرحلة تقع خارج الحداثة وبعدها إنه أقرب ما يكون إلى مراجعة الحداثة لنفسها لنقد بعض أسسها وتكوينها، فإذا ما غلب على دينامية الحداثة منطق الفصل والقطيعة، فإن ذلك وسم المراحل الظافرة للحداثة فى ذروتها .

٦ - الإحالة Reference :

مصطلح ظهر مع البنيوية وما بعد البنيوية عن المدارس النقدية السابقة عليها وقد اختلف حول مدى استطاعة النص على الإحالة إلى واقع غير أدبى أو حياتى فأنكرتا الطاقة الإحالية للأدب ومن ثم دفعتا بأن النص الأدبى لا يمكن وصفه بالصدق أو الكذب لأنه لا يُحيل القارئ إلى ما هو خارجه .

٧ - الخطاب Discourse :

للخطاب معنيان منفصلان فى إطار نظرية السرد الأول المستوى التعبيرى للرواية لا مستوى المضمون أى عملية السرد لا موضوعه، والثانى يتضمن التمييز بين الخبر والإخبار به وبين الواقعة والإبلاغ عنها. والخطاب يحتوى على «مادة» وسيط للإظهار شفاهى أو لغة مكتوبة، صور ثابتة أو متحركة، وبشكل. أدق تتحكم فى تقديم تتابع المواقف والوقائع ووجهة النظر التى تحكم هذا التقديم ومن ثم إيقاع السرد ونوع التعليق .

٨ - السرد الرئيسى Master Narrative :

منتج النص وسيرورته، موضوعه وفعله، بنيته وبناءه المتعلق بحدث حقيقى أو أكثر يقوم بتوصيله واحد أو اثنين أو عدد من الرواة لواحد أو اثنين أو عدد من المروى لهم (ظاهرين بدرجة أو بأخرى وكى لا يكون السرد الرئيسى مجرد وصف حدث قام بعض السرديين بتحديده بوصفه سردًا - على الأقل - لحدثين حقيقيين أو خياليين (أو موقف واحد وحدث واحد) لا ينقضى أحدهما منطقيًا أو يستلزم الآخر، وقد جادل سرديون آخرون حول أن السرد يجب أن يضم موضوعًا متصلاً وبشكل كلى، أما وسائط تقديم السرد التى يقوم بها الراوى / الرواة فهى كثيرة ومتنوعة (شفاهية ومكتوبة - تكتب بلغة العلامة أو توضح بالصور الساكنة أو المتحركة أو الإيماء أو أي تأليف منتظم بالطبع). أما بالنسبة للأشكال التى يمكن أن يصطنعها السرد (فى مجال السرد اللفظى وحدة تظهر روايات وقصص، وسيرة وأساطير وملاحم .. إلخ) أما توزيعه فإن السرد يظهر فى مجتمع بشرى يعرف التاريخ وكذلك الأنثربولوجيا .

٨ - استعمار - استعمارية Imperialism :

استخدمت هذه الكلمة أكثر ما استخدمت فى العلوم الاجتماعية والسياسية خاصة فى التاريخ المعاصر فى معنى محدد له علاقة بالماركسية وتفاصيلها كما أن له صلة كبرى بحركة تحرر

الشعوب المستعمرة ويتصف الاستعمار بالسياسية على أمة معينة شرط أن تكون أدنى درجة من المستعمر؛ كما أن بها فوائد كثيرة لذلك المستعمر - ليس بالضرورة أنه يفتقدها كى يستعمر الآخر - خاصة إذا استغلها اقتصاديًا والهدف الرئيسى للاستعمار تكون امبراطورية خارج مكانه تؤدى فى النهاية إلى تقاسُم العالم من قبل المستعمرين (خاصة بلدان الرأسمالية) .

نبذة

المؤلف:

شيلى واليا ناقد وكاتب أفغانى يعمل بروفيسور للأدب الإنجليزي والدراسات المقارنة، يدرس نظرية ما بعد الاستعمار فى جامعة البنجاب بكاندهار - من إصداراته النقدية : **«العالم بين التاريخ والحقيقة»** .

المترجمة:

عفاف عبد المعطى - باحثة وناقدة مصرية حاصلة على درجة الدكتوراه فى الأدب الأمريكى المقارن. من إصداراتها: السرد بين الرواية المصرية والأمريكية **«بحث فى واقعة القاع»** .

هـذا الكتاب

يظهر الباحث شيلى واليا مشروع إدوارد سعيد الفكرى الأساسى وقد تنوعت مشاربه بين السياسة التى اتخذ قراره بأن يعود إلى الكتابة فيها بعد حرب ١٩٦٧، والنقد الأدبى وجماليات الفنون. يلخص هذا المشروع - باعتباره أستاذا للأدب المقارن - كتاب «الاستشراق» ١٩٧٨؛ إذ لم يكن الشرق لصيقاً بأوروبا فحسب، بل موضوع أعظم مستعمرات. أما «الثقافة والامبريالية» الصادر في ١٩٩٣ فيقدم أجوبة لأسئلة أثارها كتاب "الاسشراق"، وإن رفض الفصل المُطلق بين الأبيض وغير الأبيض (أى الغرب ومن سواه)، كما قامت أفكار الكتاب على اكتناه الروابط العميقة والحيوية بين العرب والغرب واليابان والصين وأفريقيا هذه العلاقة التى تفوق فى عائدها وخصوبتها ما ينفى المقولة المُتخيلة التى تفترض أنه وضع العالم غربى، شرقى " نقى صاف من الأعراق والحضارات بعضها عن بعض " وقد أكد شيلي واليا في هذا الكتاب علي الموقف الفكرى فى الثقافة والإمبريالية الذى ينطلق منه إدوارد سعيد ينبع من إيمان عميق بالإنسان والحرية وضرورة التواصل والتفاعل والإثراء المتبادل بين الثقافات والمجتمعات، والصراع ضد الاستعلائية والاستعمار والهيمنة والتسلط والتمركز الغربى.

